

سورة الدُّخَانِ

مكية باتفاق؛ إلا قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ [الآية: ١٥]. وهي سبع وخمسون آية. وقيل: تسع^(١). وفي مسند الدَّارِمِيِّ^(٢) عن أبي رافع قال: «مَنْ قرأ الدخان في ليلة الجمعة، أصبح مغفوراً له، وزُوج من الحور العين». رفعه الثعلبيُّ من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قرأ الدخان في ليلة الجمعة، أصبح مغفوراً له»^(٣). وفي لفظ آخر عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قرأ الدخان في ليلة، أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك»^(٤). وعن أبي أمامة قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «مَنْ قرأ حم الدخان ليلة الجمعة أو يوم الجمعة، بنى الله له بيتاً في الجنة»^(٥).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿حَمَّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ ۝ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝﴾

إن جعلت «حم» جواب القسم، تمَّ الكلام عند قوله: «المُبِين»، ثم تبدى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ». وإن جعلت «إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ» جواب القسم الذي هو «الكتاب»، وقفت على:

(١) الكشاف ٤٩٩/٣، وذكر ابن عطية في المحرر الوجيز ٦٨/٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٣٣٦/٧ أن السورة مكية كلها.

(٢) برقم (٣٤٢١).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٨٩) وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المقدم يضعف، ولم يسمع الحسن من أبي هريرة، هكذا قال أيوب ويونس بن عبيد وعلي بن زيد.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٨٨٨) وقال: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وعمر بن أبي خنعم يضعف، قال محمد [يعني البخاري]: وهو منكر الحديث.

(٥) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٠٢٦)، قال الهيثمي في المجمع ١٦٨/٢: فيه فضال بن جبير وهو ضعيف جداً.

«مُنذِرِينَ»، وابتدأت: «فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ»^(١). وقيل: الجواب: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ»^(٢)، وأنكره بعض النحويين من حيث كان صفة للمُقَسَّم به، ولا تكون صفة المقَسَّم به جواباً للمُقَسَّم.

والهاء في «أَنْزَلْنَاهُ» للقرآن^(٣). ومَنْ قال: أقسم بسائر الكتب فقله: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ» كَتَى به عن غير القرآن، على ما تقدّم بيانه في أوّل «الزخرف»^(٤).

والليلة المباركة ليلة القدر. ويقال: ليلة النصف من شعبان، ولها أربعة أسماء: الليلة المباركة، وليلة البراءة، وليلة الصَّكِّ، وليلة القدر^(٥). ووصفها بالبركة لِمَا يُنَزَّلُ الله فيها على عباده من البركات والخيرات والثواب. وروى قتادة عن واثلة أن النبي ﷺ قال: «أُنزِلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأُنزلت التوراة لِسِتِّ مَضْيَيْنَ من رمضان، وأُنزلت الزَّبُور لاثنتي عَشْرَةَ من رمضان، وأُنزل الإنجيل لثمان عَشْرَةَ خلت من رمضان، وأُنزل القرآن لأربع وعشرين مضت من رمضان»^(٦).

ثم قيل: أُنزل القرآن كلُّه إلى السماء الدنيا في هذه الليلة. ثم أُنزل نَجْمًا نَجْمًا في سائر الأيام على حسب اتفاق الأسباب^(٧). وقيل: كان ينزل في كلِّ ليلة القدر ما ينزل

(١) إيضاح الوقف والابتداء ٢/ ٨٨٨ .

(٢) الكشاف ٣/ ٤٩٩ ، وزاد المسير ٧/ ٣٣٦ .

(٣) زاد المسير ٧/ ٣٣٦ .

(٤) ص ٦ من هذا الجزء .

(٥) الكشاف ٣/ ٤٩٩ .

(٦) النكت والعيون ٥/ ٢٤٥ ، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٣٧٥٢) ، والبيهقي ٩/ ١٨٨ وفيه أن الإنجيل أنزل لثلاث عشرة خلت، وأن الزبور أنزل لثمان عشرة خلت. قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن قتادة إلا عمران القطان، ولا يروى عن رسول الله ﷺ إلا بهذا الإسناد. قال الهيثمي في المجمع ١/ ١٩٧ : فيه عمران القطان، ضعفه يحيى، ووثقه ابن حبان، وبقية رجاله ثقات. وسلف ٣/ ١٦١ دون ذكر الزبور، وفيه أن الإنجيل أنزل لثلاث عشرة.

(٧) سلف هذا القول في سورة البقرة ٣/ ١٦٠ - ١٦١ .

في سائر السنة^(١). وقيل: كان ابتداء الإنزال في هذه الليلة^(٢). وقال عكرمة: الليلة المباركة ها هنا ليلة النصف من شعبان^(٣). والأول أصح لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]. قال قتادة وابن زيد: أنزل الله القرآن كله في ليلة القدر من أم الكتاب إلى بيت العزة في سماء الدنيا، ثم أنزله الله على نبيه ﷺ في الليالي والأيام في ثلاث وعشرين سنة^(٤). وهذا المعنى قد مضى في «البقرة»^(٥) عند قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [الآية: ١٨٥]، ويأتي آنفاً إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾

قال ابن عباس: يُحكّم الله أمر الدنيا إلى قابل في ليلة القدر ما كان من حياة أو موت أو رزق. وقاله قتادة ومجاهد والحسن وغيرهم^(٦). وقيل: إلا الشقاء والسعادة فإنهما لا يتغيران. قاله ابن عمر^(٧). قال المهدي: ومعنى هذا القول: أمر الله عز وجل الملائكة بما يكون في ذلك العام، ولم يزل ذلك في علمه عز وجل. وقال عكرمة: هي ليلة النصف من شعبان، يُبرم فيها أمر السنة، ويُنسخ الأحياء من الأموات، ويكتب الحاج، فلا يُزاد فيهم أحد ولا يُنقص منهم أحد^(٨).

وروى عثمان بن المغيرة قال: قال النبي ﷺ: «تقطع الآجال من شعبان إلى

(١) ينظر تفسير أبي الليث ٣/٢١٥، والوسيط ٤/٨٥.

(٢) المحرر الوجيز ٥/٦٨.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/٩.

(٤) أخرج قول ابن زيد الطبري ٢١/٦، وأورد قول قتادة البغوي في تفسيره ٤/١٤٨.

(٥) ٣/١٦٠ - ١٦١.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٦/٣٩٦ - ٣٩٧.

(٧) عزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/٢٥ لابن أبي حاتم.

(٨) أخرجه الطبري ٢١/٩.

شعبانَ حتى إنَّ الرجلَ لَيُنْكِحُ وَيُوَلِّدُ له وقد خرج اسمه في الموتى»^(١). وعن النبي ﷺ قال: «إذا كانت ليلة النصف من شعبان، فقوموا ليلتها، وصوموا نهارها»^(٢)، فإن الله ينزل لغروب الشمس إلى سماء الدنيا يقول: ألا مستغفرٌ فأغفرَ له، ألا مبتلىٌ فأعافيه، ألا مسترزقٌ فأرزقه، ألا كذاً ألا كذا، حتى يطلعَ الفجر»^(٣) ذكره الثعلبي.

وخرج الترمذيُّ بمعناه عن عائشةَ عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا، فيغفرُ لأكثرَ من عددِ شعرِ عَنَمِ كَلْبٍ»^(٤). وفي الباب عن أبي بكرٍ الصديق قال أبو عيسى: حديثُ عائشةَ لا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحجاج بن أرطاة، عن يحيى بن أبي كثير، عن عروة، عن عائشة، وسمعت محمداً يُضَعِّفُ هذا الحديث، وقال: يحيى بنُ أبي كثير لم يسمع من عروة، والحجاج بن أرطاة لم يسمع من يحيى بن أبي كثير.

قلت: وقد ذكر حديثُ عائشةَ مطوَّلاً صاحبُ كتاب «العروس»، واختار أنَّ الليلة التي يُفَرِّقُ فيها كلُّ أمرٍ حكيمٍ ليلةَ النصف من شعبان، وأنها تُسمَّى ليلة البراءة. وقد ذكرنا قوله والردُّ عليه في غير هذا الموضع، وأنَّ الصحيح إنما هي ليلةُ القدر على ما بيَّناه.

روى حمَّاد بن سَلَمَةَ قال: أخبرنا ربيعة بنُ كُلثوم قال: سألت رجل الحسن وأنا عنده فقال: يا أبا سعيد، رأيت ليلة القدر، أفي كلِّ رمضان هي؟ قال: إي والله

(١) كذا أخرجه الطبري ١٠/٢١ مرسلأ، وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣٨٣٩) من قول عثمان بن المغيرة. وعثمان هذا هو ابن محمد بن المغيرة الأحنس منسوب إلى جده، قال ابن حجر في التقریب: صدوق له أوهام.

(٢) في (ظ) و(ق): يومها.

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٣٨٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٨٢٢) وفيه ابن أبي سبرة، واسمه أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي سبرة. قال في الزوائد: إسناده ضعيف؛ لضعف ابن أبي سبرة... قال فيه أحمد بن حنبل وابن معين: يضع الحديث.

(٤) سنن الترمذي (٧٣٩) والكلام بعده منه، وأخرجه أيضاً أحمد (٢٦٠١٨)، وابن ماجه (١٣٨٩).

الذي لا إله إلا هو، إنها لفي^(١) كلِّ رمضان، إنها الليلة التي يُفَرِّقُ فيها كلُّ أمر حكيم، فيها يَقْضِي اللهُ كلَّ خلقٍ وأجلٍ ورزقٍ وعملٍ إلى مثلها^(٢).

وقال ابن عباس: يُكْتَبُ من أمِّ الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجِّ، يقال: يحجُّ فلان ويحجُّ فلان^(٣). وقال في هذه الآية: إنك لترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى^(٤). وهذه الإبانة لأحكام السنَّة إنما هي للملائكة الموكِّلين بأسباب الخلق. وقد ذكرنا هذا المعنى آنفاً.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي^(٥): وجمهور العلماء على أنها ليلة القدر. ومنهم من قال: إنها ليلة النصف من شعبان، وهو باطل؛ لأن الله تعالى قال في كتابه الصادق القاطع: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فنصَّ على أن ميقات نزوله رمضان، ثم عيَّن من زمانه الليلَ ها هنا بقوله: ﴿فِي لَيْلَةٍ مُّبَرَّكَةٍ﴾، فمن زعم أنه في غيره فقد أعظم الفرية على الله، وليس في ليلة النصف من شعبان حديثٌ يُعوَّل عليه لا في فضلها ولا في نسخ الآجال فيها، فلا تلتفتوا إليها^(٦).

الزمخشري^(٧): وقيل: يُبْدَأُ في استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة، ويقع الفراغ في ليلة القدر، فتُدْفَعُ نسخة الأرزاق إلى ميكائيل، ونسخة الحروب إلى جبريل، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف، ونسخة الأعمال إلى

(١) في (د) و(م): في.

(٢) الاستذكار ٣٣٨/١٠، وأخرجه الطبري ٧/٢١ من طريق يزيد وابن عُليَّة عن ربيعة بن كلثوم.

(٣) أورده السيوطي في الدر المنثور ٢٥/٦ وعزاه لمحمد بن نصر وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٤) أخرجه الطبري ١٠/٢١، والحاكم ٤٤٨/٢ - ٤٤٩.

(٥) في أحكام القرآن ١٦٧٨/٤.

(٦) غير أن فضلها ورد بمجموع أحاديث، وهي - وإن كان في إسناد كلِّ منها مقال - تتقوى ببعضها. تنظر أحاديث الباب في حاشية المسند (٦٦٤٢).

(٧) في الكشاف ٥٠٠/٣، وإلى آخر تفسير الآية منه.

إسماعيلَ صاحبِ سماءِ الدنيا، وهو مَلَكٌ عظيم، ونسخةُ المصائبِ إلى مَلَكِ الموت. وعن بعضهم: يُعطى كلُّ عاملِ بركاتِ أعماله، فيلقى على ألسنة الخلق مدحُه، وعلى قلوبهم هيبتُه.

وَقُرِي: «يُفَرِّقُ»^(١) بالشدديد، و«يُفَرِّقُ»^(٢) كلُّ على بنائه للفاعل ونصبِ «كلِّ»، والفارقُ الله عزَّ وجلَّ. وقرأ زيد بن عليٍّ ؑ: «نفرُق» بالنون.

﴿كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾: كلُّ شأنٍ ذي حكمة، أي: مفعول على ما تقتضيه الحكمة.

قوله تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْرًا مِّنْ عِنْدِنَا﴾ قال النقَّاش: الأمرُ هو القرآن؛ أنزله الله من عنده. وقال ابن عيسى: هو ما قضاه الله في اللَّيلة المباركة من أحوال عباده^(٣).

وهو مصدرٌ في موضع الحال. وكذلك ﴿رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ﴾ وهما عند الأخفش^(٤) حالان، تقديرهما: أنزلناه أمرين به وراحمين. المبرد: «أمرًا» في موضع المصدر، والتقدير: أنزلناه إنزالاً^(٥). الفراء والزجاج: «أمرًا» نصب بـ «يُفَرِّقُ»، مثلُ قولك: يُفَرِّقُ فرقًا، فأمر بمعنى فرَّق فهو مصدر، مثلُ قولك: يضرب ضرباً^(٦). وقيل: «يُفَرِّقُ» يدلُّ على يؤمر، فهو مصدرٌ عمل فيه ما قبله^(٧).

﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾. رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ قال الفراء^(٨): «رَحْمَةً» مفعول بـ «مرسِلين».

(١) في (م): نفرق. وقراءة: يُفَرِّقُ؛ بالشدديد، ذكرها الزمخشري في الكشاف ٥٠٠/٣.

(٢) قرأ «يُفَرِّقُ» بفتح الياء وضم الراء الحسن والأعرج والأعمش، وقرأها بفتح الياء وكسر الراء أبو المتوكل وأبو نيهك ومعاذ القرائي. ينظر القراءات الشاذة ص ١٣٧، والمححر الوجيز ٦٩/٥، وزاد المسير ٣٣٧/٧.

(٣) النكت والعيون ٢٤٦/٥.

(٤) في معاني القرآن ٦٩١/٢.

(٥) مشكل إعراب القرآن ٦٥٤/٢.

(٦) معاني القرآن للفراء ٣٩/٣، ومعاني القرآن للزجاج ٤٢٤/٤.

(٧) مشكل إعراب القرآن ٦٥٤/٢.

(٨) في معاني القرآن ٣٩/٣.

والرحمة النبي ﷺ. وقال الزجاج: «رَحْمَةً» مفعولٌ من أجله، أي: أرسلناه للرحمة^(١). وقيل: هي بدل من قوله: «أمرأ». وقيل: هي مصدر^(٢). الزمخشري: «أمرأ» نصب على الاختصاص، جعل كلَّ أمرٍ جزئاً فخماً بأن وصفه بالحكيم، ثم زاده جَزالة وكسبه فخامة بأن قال: أعني بهذا الأمر أمرأً حاصلأً من عندنا، كائناً من لدُنَّا، وكما اقتضاه علمنا وتديبنا.

وفي قراءة زيد بن علي: «أمرٌ من عندنا» على: هو أمرٌ، وهي تنصُر انتصابه على الاختصاص. وقرأ الحسن: «رحمة» على تلك هي رحمة، وهي تنصُر انتصابها بأن مفعول له^(٣).

قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِي شَكِّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قرأ الكوفيون: «رَبِّ» بالجر. الباقر بالرفع^(٤)؛ ردًّا على قوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. وإن شئت على الابتداء، والخبر: لا إله إلا هو. أو يكون خبر ابتداء محذوف، تقديره: هو ربُّ السماوات والأرض. والجرُّ على البدل من «رَبِّكَ»، وكذلك: ﴿رَبُّكُمْ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ بالجرِّ فيهما، رواه الشَّيْزُرِيُّ^(٥) عن الكسائي. الباقر بالرفع على الاستئناف.

ثم يحتمل أن يكون هذا الخطاب مع المعترفِ بأن الله خلق السماواتِ

(١) معاني القرآن للزجاج ٤/٤٢٤.

(٢) مشكل إعراب القرآن ٢/٦٥٥.

(٣) الكشاف ٣/٥٠٠ - ٥٠١.

(٤) السبعة ص ٥٩٢، والتيسير ص ١٩٨.

(٥) هو عيسى بن سليمان أبو موسى الحجازي المعروف بالشيْزُرِيُّ الحنفي، مقرئ عالم نحوي، كان حجازياً، ثم انتقل إلى شيزر، وأقام بها إلى أن مات، فنسب إليها، أخذ القراءة عرضاً وسمعاً عن الكسائي، وله عنه انفردات. طبقات القراء ١/٦٠٨، وقراءته في القراءات الشاذة ص ١٣٧.

والأرض، أي: إن كنتم موقنين به؛ فاعلموا أن له أن يُرسل الرسل، ويُنزّل الكتب. ويجوز أن يكون الخطاب مع مَنْ لا يعترف أنه الخالق، أي: ينبغي أن يعرفوا أنه الخالق، وأنه الذي يحيي ويميت. وقيل: الموقنُ ها هنا هو الذي يريد اليقين ويطلبه، كما تقول: فلان يُنجد، أي: يريد نَجداً. ويُتهم، أي: يريد تِهامة^(١).

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أي: هو خالقُ العالم، فلا يجوز أن يُشرك به غيره ممَّن لا يقدر على خلق شيء. و«هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ» أي: يحيي الأموات ويميت الأحياء. ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ أي: مالِكُكم ومالكُ مَنْ تقدَّم منكم. واتَّقُوا تكذيب محمد لثلاثين نزل بكم العذاب.

﴿بَلْ هُمْ فِي سَكِّ يَلْعَبُونَ﴾ أي: ليسوا على يقين فيما يُظهرونه من الإيمان والإقرار في قولهم: إن الله خالقهم، وإنما يقولونه لتقليد آبائهم من غير علم، فهم في شك. وإن توهموا أنهم مؤمنون، فهم يلعبون في دينهم بما يُعْنُ من غير حجة. وقيل: «يَلْعَبُونَ»: يضيفون إلى النبي ﷺ الافتراء استهزاءً. ويقال لمن أعرض عن المواعظ^(٢): لاعب، وهو كالصبي الذي يلعب فيفعل ما لا يدرى عاقبته.

قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٣﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ ارتقب معناه: انتظر، أي: انتظر يا محمدُ بهؤلاء^(٣) الكفار يوم تأتي السماء بدخان مبين. قاله قتادة^(٤). وقيل: معناه: احفظ قولهم هذا لتشهد عليهم يوم تأتي السماء بدخان مبين، ولذلك سُمِّيَ الحافظُ رقيباً^(٥).

(١) ينظر هذا القول في تفسير الرازي ٢٧/٢٤١.

(٢) في (ظ): الذكر.

(٣) في (ظ): هؤلاء، وقوله: أي انتظر، من (ظ).

(٤) النكت والعيون ٥/٢٤٦، وأخرجه الطبري ٢١/١٣.

(٥) النكت والعيون ٥/٢٤٧.

وفي الدخان أقوال ثلاثة :

الأول : أنه من أشراط الساعة لم يَجِئْ بعدُ، وأنه يمكث في الأرض أربعين يوماً يملأ ما بين السماء والأرض، فأما المؤمنُ فيصيبه مثل الزُكام، وأما الكافرُ والفاجر فيدخل في أنوفهم فيثقبُ مسامِعهم، ويضيقُ أنفاسهم، وهو من آثار جهنم يوم القيامة. وممن قال إن الدخان لم يأتِ بعدُ: عليّ، وابن عباس، وابن عمر، وأبو هريرة، وزيد بن عليّ، والحسن، وابن أبي مليكة، وغيرهم^(١). وروى أبو سعيد الخدري مرفوعاً أنه دخانٌ يهيجُ بالناس يوم القيامة، يأخذ المؤمن منه كالزُّكمة، وينفخُ الكافر حتى يخرج من كلِّ مسمع منه. ذكره الماوردي^(٢).

وفي صحيح مسلم عن أبي الطَّفيل، عن حذيفة بن أسيد الغفاري قال: أطلع النبي ﷺ علينا ونحن نتذاكر فقال: «ما تذكرون؟» قالوا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات - فذكر - الدخان، والدجال، والذابَّة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى ابن مريم، وخروج يأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف: خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ بجزيرة العرب، وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم»^(٣).

وفي رواية عن حذيفة: «إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: خسفٌ بالمشرق، وخسفٌ بالمغرب، وخسفٌ في جزيرة العرب، والدخان، والدجال، ودابَّة الأرض، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها، ونارٌ تخرج من قعر عدن تُرحلُ الناس»^(٤).

(١) قول علي في تفسير عبد الرزاق ٢/٢٠٦، وتفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٢٨٨ (١٨٥٣٤)، وقول ابن عباس وابن عمر والحسن في تفسير الطبري ٢١/١٨ - ١٩. وقول أبي هريرة في زاد المسير ٧/٣٣٩، وقول زيد بن علي في المحرر الوجيز ٥/٦٩، وقول ابن أبي مليكة في المفهم ٧/٢٣٩.

(٢) في النكت والعيون ٥/٢٤٧، وأخرجه الطبري ٢١/١٩، وابن أبي حاتم ١٠/٣٢٨٧ (١٨٥٣٣).

(٣) صحيح مسلم (٢٩٠١): (٣٩)، وهو عند أحمد (١٦١٤١).

(٤) صحيح مسلم (٢٩٠١): (٤٠).

وخرَّجه الثعلبيُّ أيضاً عن حُذيفةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ الآياتِ خروجاُ: الدَّجَالُ، والدخان»^(١)، ونزولُ عيسى ابنِ مريم، ونازُ تخرج من قَعْرِ عَدَنَ أُبَيِّنَ تسوق الناس إلى المعشر، تبيت معهم حيث باتوا، وتَقِيلُ معهم إذا قالوا، وتُصبح معهم إذا أصبحوا، وتُمسي معهم إذا أمسوا». قلت: يا نبيَّ الله، وما الدُّخان؟ قال: «هذه الآية: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ يملأ ما بين المشرق والمغرب، يمكث أربعين يوماً وليلة، أمَّا المؤمنُ فيصيبه منه شبه الرُّكام، وأمَّا الكافرُ فيكون بمنزلة السَّكران يخرج الدخان من فمه ومَنْخَره وعينه وأُذنيه ودبره»^(٢). فهذا قول.

القول الثاني: أن الدخان هو ما أصاب قريشاً من الجوع بدعاء النبي ﷺ، حتى كان الرجل يرى بين السماء والأرض دخاناً. قاله ابن مسعود^(٣). قال: وقد كشفه الله عنهم، ولو كان يوم القيامة لم يكشفه عنهم.

والحديثُ عنه بهذا في صحيح البخاريِّ ومسلم والترمذيِّ. قال البخاريُّ: حدثني يحيى قال: حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش، عن مسلم، عن مسروق قال: قال عبد الله: إنما كان هذا لأن قريشاً لمَّا استعصت على النبي ﷺ، دعا عليهم بسنينٍ كَسِنِي يوسف، فأصابهم قَحْطٌ وجَهْدٌ حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدُّخان من الجَهْد، فأنزل الله تعالى: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ . يَغْشى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. قال: فأتى رسول الله ﷺ فقيل: يا رسول الله، استسق الله لِمُضْرٍ فإنها قد هلكت. قال: «لِمُضْرٍ! إنك لَجريء». فاستسقى فسُقُوا، فنزلت: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [الآية: ١٥]. فلَمَّا أصابتهم الرفاهية، عادوا إلى حالهم حين أصابتهم الرفاهية، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَوْمَ تَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْقِمُونَ﴾. قال: يعني يوم بدر^(٤).

(١) قوله: والدخان، من (ظ).

(٢) أخرجه الطبري ١٩/٢١ - ٢٠.

(٣) ينظر النكت والعيون ٢٤٧/٥، والمحزر الوجيز ٦٩/٥، وزاد المسير ٣٤٠/٧.

(٤) صحيح البخاري (٤٨٢١)، وصحيح مسلم (٢٧٩٨): (٤٠)، وسنن الترمذي (٣٢٥٤)، وهو عند أحمد (٣٦١٣).

قال أبو عبيدة^(١): «والدُّخَانُ الجَدْبُ. القُتْبِيُّ^(٢): سُمِّيَ دخَانًا لَيْسَ الأَرْضُ مِنْهُ حين يَرْتَفِعُ مِنْهَا كالدخان.

القول الثالث: إنه يوم فتح مكة لَمَّا حَجَبَتِ السَّمَاءُ الغَبْرَةَ. قاله عبد الرحمن الأعرج^(٣).

﴿يَغْشَى النَّاسَ﴾ في موضع الصفة للدُّخَانِ، فإن كان قد مضى على ما قال ابن مسعود، فهو خاصٌّ بالمشركين من أهل مكة، وإن كان من أشراف الساعة فهو عامٌّ على ما تقدم. ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: يقول الله لهم: «هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ». فمن قال: إن الدخان قد مضى، فقولُه: «هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ» حكايةٌ حالٍ ماضية، ومَنْ جعله مستقبلًا، فهو حكايةٌ حالٍ آتية. وقيل: «هَذَا» بمعنى ذلك. وقيل: أي: يقول الناس لذلك الدخان: «هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ»^(٤). وقيل: هو إخبارٌ عن دُنُو الأمر، كما تقول: هذا الشتاء فأعدِّ له.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾﴾

أي: يقولون ذلك: اكشف عنا العذاب، ف«إِنَّا مُؤْمِنُونَ»، أي: نؤمن بك إن كشفته عنا. قيل: إن قريشًا أتوا النبي ﷺ وقالوا: إن كشف الله عنا هذا العذاب، أسلمنا، ثم نقضوا هذا القول^(٥). قال قتادة: «العَذَابُ» هنا الدخان. وقيل: الجوع. حكاة النقاش^(٦).

قلت: ولا تناقض، فإن الدُّخَانَ لم يكن إلا من الجوع الذي أصابهم، على ما

(١) في مجاز القرآن ٢/٢٠٨، ونقله المصنف بواسطة الماوردي في النكت والعيون ٥/٢٤٧.

(٢) في تفسير غريب القرآن ص ٤٠٢، ونقله المصنف بواسطة الماوردي في النكت والعيون.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم ١٠/٣٢٨٧ (١٨٥٣٢).

(٤) هذا القول في معاني القرآن للزجاج ٤/٤٢٥، وزاد المسير ٧/٣٤١.

(٥) سلف هذا القول في الآية السابقة في الحديث الذي أخرجه البخاري عن ابن مسعود.

(٦) النكت والعيون ٥/٢٤٧.

تقدّم. وقد يقال للجوع والقحط: الدخان؛ لئیس الأرض في سنة الجذب، وارتفاع الغبار بسبب قلة الأمطار، ولهذا يقال لسنة الجذب: العبراء^(١). وقيل: إن العذاب هنا الثلج. قال الماوردي^(٢): وهذا لا وجه له؛ لأن هذا إنما يكون في الآخرة، أو في أهل مكة، ولم تكن مكة من بلاد الثلج، غير أنه مقولٌ فحكيانه.

قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْلَهُ مَجْنُونٌ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَنَّ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ﴾ أي: من أين يكون لهم التذکر والاعتاظ عند حلول العذاب. ﴿وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ﴾: يبيّن لهم الحق، والذكري والذکر واحد. قاله البخاري^(٣). ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي: أعرضوا. قال ابن عباس: أي: متى يتعظون واللّه أبعدهم من الاعتاظ والتذکر بعد توليهم عن محمد ﷺ وتكذيبهم إياه؟! وقيل: أي: أنّي ينفعهم قولهم: «إنا مؤمنون» بعد ظهور العذاب غدّ أو بعد ظهور أعلام الساعة! فقد صارت المعارف ضرورية. وهذا إذا جعلت الدخان آية مرتقبة. ﴿وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّثْلَهُ مَجْنُونٌ﴾ أي: علّمه بشرّ، أو علّمه الكهنة والشياطين، ثم هو مجنونٌ وليس برسول.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا﴾ أي: وقتاً قليلاً، وعدّ أن يكشف عنهم ذلك العذاب قليلاً، أي: في زمانٍ قليلٍ ليعلم أنهم لا يقفون بقولهم، بل يعودون إلى الكفر بعد كشفه. قاله ابن مسعود. فلما كشف ذلك عنهم باستسقاء النبي ﷺ لهم، عادوا إلى تكذيبه^(٤). ومن قال: إن الدخان منتظرٌ قال: أشار بهذا إلى ما يكون من الفرجة بين

(١) تفسير غريب القرآن ص ٤٠٢ .

(٢) في النكت والعيون ٢٤٧/٥ وما قبله منه.

(٣) في صحيحه قبل حديث (٤٨٢٣).

(٤) النكت والعيون ٢٤٧/٥ .

آية وآية من آيات قيام الساعة. ثم من قضى عليه بالكفر يستمر على كفره، ومن قال هذا في القيامة قال: أي لو كشفنا عنكم العذاب، لعدتم إلى الكفر. وقيل: معنى ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ إينا، أي: مبعوثون بعد الموت. وقيل: المعنى: ﴿إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ إلى نار جهنم إن لم تؤمنوا^(١).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبِّطُشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ محمولٌ على ما دلَّ عليه ﴿مُنْتَقِمُونَ﴾، أي: ننتقم منهم يوم نبطش. وأبعده بعض النحويين بسبب أن ما بعد «إِنَّ» لا يفسر ما قبلها. وقيل: إن العامل فيه «مُنْتَقِمُونَ». وهو بعيدٌ أيضاً؛ لأن ما بعد «إِنَّ» لا يعمل فيما قبلها. ولا يحسن تعلقه بقوله: «عَائِدُونَ»، ولا بقوله: «إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ»؛ إذ ليس المعنى عليه. ويجوز نصبه بإضمار فعل، كأنه قال: ذكّرهم، أو: اذكر. ويجوز أن يكون المعنى: إنكم عائدون، فإذا عدتم أنتم منكم يوم نبطش البطشة الكبرى. ولهذا وصل هذا بقصة فرعون، فإنهم وعدوا موسى الإيمان إن كشف عنهم العذاب، ثم لم يؤمنوا حتى غرقوا. وقيل: «إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ» كلام تام. ثم ابتداء: «يَوْمَ نَبِّطُشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْتَقِمُونَ» أي: ننتقم من جميع الكفار. وقيل: المعنى وارتقب الدخان وارتقب يوم نبطش، فحذف واو العطف، كما تقول: اتق النار اتق العذاب.

و﴿الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ﴾ في قول ابن مسعود: يوم بدر. وهو قول ابن عباس وأبي بن كعب ومجاهد والضحاك^(٢). وقيل: عذاب جهنم يوم القيامة. قاله الحسن وعكرمة وابن عباس أيضاً^(٣)، واختاره الزجاج. وقيل: دخان يقع في الدنيا، أو جوع أو قحط

(١) النكت والعيون ٥/٢٤٧.

(٢) أخرج قولهم الطبري ٢١/٢٥ - ٢٧.

(٣) النكت والعيون ٥/٢٤٨، وأخرج قولهم الطبري ٢١/٢٧.

يقع قبل يوم القيامة. الماوردي^(١): ويحتمل أنها قيام الساعة؛ لأنها خاتمة بطشاته في الدنيا. ويقال: انتقم الله منه، أي: عاقبه. والاسم منه النَّقْمَة، والجمعُ النَّقْمَاتُ^(٢). وقيل بالفرق بين النَّقْمَة والعقوبة، فالعقوبة بعد المعصية لأنها من العاقبة. والنَّقْمَة قد تكون قبلها. قاله ابن عباس^(٣). وقيل: العقوبة ما تقدّرت، والانتقام غير مقدّر.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿٧﴾﴾

أي: ابتليناهم، ومعنى هذه الفتنة والابتلاء الأمر بالطاعة. والمعنى: عاملناهم معاملة المختبر ببعثة موسى إليهم، فكذبوا فأهلكوا، فهكذا أفعالُ أعدائك يا محمد إن لم يؤمنوا. وقيل: فتناهم: عذبناهم بالغرق. وفي الكلام تقديم وتأخير، والتقدير: ولقد جاء آل فرعون رسول كريمة وفتناهم، أي: أغرقناهم؛ لأن الفتنة كانت بعد مجيء الرسل. والواو لا تُرتّب.

ومعنى ﴿كَرِيمٌ﴾ أي: كريم في قومه. وقيل: كريم الأخلاق بالتجاوز والصفح^(٤). وقال الفراء^(٥): كريم على ربه إذ اختصه بالنبوة وإسماع الكلام.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِي لَكَرَّ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٨﴾ وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِيَّائِي إِتَيْكُم بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾ قال ابن عباس: المعنى: جاءهم فقال: اتبعوني^(٦). «فعباد الله» منادى. وقال مجاهد: المعنى: أرسلوا معي عباد الله

(١) في النكت والعيون ٢٤٨/٥.

(٢) الصحاح (نقم).

(٣) في النكت والعيون ٢٤٨/٥ والكلام وما سيرد منه: قاله ابن عيسى.

(٤) النكت والعيون ٢٤٩/٥.

(٥) في معاني القرآن ٤٠/٣.

(٦) أخرجه الطبري ٢٩/٢١.

وأطلقوهم من العذاب^(١). ف«عِبَادَ اللَّهِ» على هذا مفعول. وقيل: المعنى: أدوا إليَّ عِبَادَ اللَّهِ ما وجبَ عليكم من حقوق الله. وقيل: أي^(٢): أدوا إليَّ سمعكم حتى أبلغكم رسالة ربي .

﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ أي: أمينٌ على الوحي فاقبلوا نصحي. وقيل: أمينٌ على ما أستاذيه منكم، فلا أخونُ فيه^(٣).

﴿وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ﴾ أي: لا تتكبروا عليه ولا ترتفعوا عن طاعته. وقال قتادة: لا تبغوا على الله. ابن عباس: لا تفتروا على الله^(٤). والفرقُ بين البغي والافتراء: أن البغي بالفعل والافتراء بالقول. وقال ابن جريح: لا تَعْظُمُوا على الله. يحيى بن سلام: لا تستكبروا على عبادة^(٥) الله. والفرقُ بين التعظيم والاستكبار: أن التعظيم تطاولُ المقتدر، والاستكبارُ تَرْفَعُ المحتقر. ذكره الماوردي^(٦).

﴿إِنِّي ءَأْتِيكُمْ بِسُلْطَنِ ثُبَيْنٍ﴾ قال قتادة: بعذرِ ثُبَيْن. وقال يحيى بن سلام: بحجة بيّنة. والمعنى واحد، أي: برهان بيّن.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ﴾ ﴿٢٠﴾

كأنهم توعدوه بالقتل فاستجار بالله. قال قتادة: «تَرْجُمُونِ» بالحجارة^(٧). وقال ابن عباس: تشتمون، فتقولوا: ساحرٌ كذاب^(٨). وأظهر الذال من «عُدْتُ» نافعٌ وابنُ

(١) تفسير مجاهد ٥٨٨/٢ بنحوه .

(٢) من قوله : أدوا إليَّ، إلى هذا الموضع من (ظ) .

(٣) النكت والعيون ٢٤٩/٥ .

(٤) أخرج قول قتادة وابن عباس الطبري ٣١/٢١ .

(٥) في (د) والنكت والعيون ٢٤٩/٥ : عباد .

(٦) في النكت والعيون ٢٤٩/٥ وما سيرد منه .

(٧) أخرجه الطبري ٣٢/٢١ .

(٨) أخرجه الطبري ٣٢/٢١ بنحوه .

كثير وابن عامر وعاصم ويعقوب، وأدغم الباقون^(١). والإدغام طلباً للتخفيف، والإظهار على الأصل. ثم قيل: إني عدت بالله فيما مضى؛ لأن الله وعده فقال: ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥]. وقيل: إني أعود، كما تقول: نشدتك بالله، وأقسمت عليك بالله، أي: أقسم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاَعِزُّوْا﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي﴾ أي: إن لم تصدقوني ولم تؤمنوا بالله لأجل برهاني. فاللام في «لي» لام أجل^(٢). وقيل: أي: وإن لم تؤمنوا بي^(٣)، كقوله: ﴿فَقَامَنَ لَمْ لُوْطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦] أي: به. ﴿فَاَعِزُّوْا﴾ أي: دعوني كفافاً لا لي ولا علي^(٤). قاله مقاتل. وقيل: أي: كونوا بمعزل مني^(٥) وأنا بمعزل منكم إلى أن يحكم الله بيننا. وقيل: فخلّوا سبيلي وكفّوا عن أذائي^(٦). والمعنى متقارب، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هَتُوْا لَاءَ قَوْمٍ مُّجْرِمُوْنَ﴾

قوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ فيه حذف، أي: فكفروا فدعا ربه. ﴿أَنَّ هَتُوْا لَاءَ﴾ بفتح «أَنَّ» أي: بأن هتوا لاء^(٧). ﴿قَوْمٍ مُّجْرِمُوْنَ﴾ أي: مشركون^(٨)، قد امتنعوا من إطلاق بني إسرائيل ومن الإيمان.

(١) التيسير ص ٤٢، والنشر ١٦/٢.

(٢) تفسير الرازي ٢٧/٢٤٥.

(٣) المحرر الوجيز ٥/٧١.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/٤٠٢، والكشاف ٣/٥٠٣. وفي القاموس: دعني كفافاً، كقطام: كُفَّ عني وأكُفَّ عنك. قال الزبيدي في شرحه: ويجيء معرباً، ومنه قول عمر ؓ: وددتُ أني سلمت من الخلافة كفافاً، لا علي ولا لي.

(٥) في (د) و(ظ): عني.

(٦) النكت والعيون ٥/٢٥٠.

(٧) معاني القرآن للزجاج ٤/٤٢٦، والوسيط ٤/٨٨، والكشاف ٣/٥٠٣.

(٨) زاد المسير ٧/٣٤٣.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْتَرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ ﴿٢٣﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَأَنْتَرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾ أي: فأجبنا دعاءه وأوحينا إليه أن أسرِ بعبادي، أي: بمن آمن بالله من بني إسرائيل. ﴿لَيْلًا﴾ أي: قبل الصباح. ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ﴾ وقرأ أهل الحجاز «فأسر» بوصل الألف. وكذلك ابن كثير، من سَرَى. الباقون: «فأسر» بالقطع، من أسرى^(١). وقد تقدّم^(٢). وتقدّم خروج فرعون وراء موسى في «البقرة والأعراف وطه والشعراء ويونس»^(٣) وإغراقه وإنجاء موسى، فلا معنى للإعادة.

الثانية: أمر موسى عليه السلام بالخروج ليلاً. وسيرُ الليل في الغالب إنما يكون عن خوف، والخوف يكون بوجهين: إمّا من العدو فيتخذ الليل سِتْرًا مُسَدِّلاً، فهو من أَسْتَار الله تعالى. وإمّا من خوف المشقة على الدواب والأبدان بحرّاً أو جذب، فيتخذ السرى مصلحةً من ذلك. وكان النبي ﷺ يسري ويُدلج^(٤) ويترفق ويستعجل، بحسب الحاجة وما تقتضيه المصلحة^(٥). وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «إذا سافرتم في الخصب، فأعطوا الإبل حَظَّها من الأرض، وإذا سافرتم في السّنة، فبادروا بها نَقِيها»^(٦). وقد مضى في أول «النحل»، والحمد لله.

(١) التيسير ص ١٢٥، والنشر ٢/٢٩٠.

(٢) ١٨٢/١١.

(٣) ٩٢/٢ - ٩٣، و٤٥/١١، و١١١/١٤، و٣١/١٦ وما بعدها.

(٤) قوله: ويدلج من الدَّلْجَة، وهو السير من أول الليل. القاموس (دلج).

(٥) أحكام القرآن لابن العربي ٤/١٦٧٩.

(٦) أخرجه مسلم (١٩٢٦) من حديث أبي هريرة ؓ، وسلف ١٢/٢٧٧. والمراد بالسّنة القحط، ونقيها - بكسر النون وإسكان القاف - وهو المَخّ، أي: إن سافرتم في القحط فعجلوا السير لتصلوا المقصد وفيها بقية من قوتها. شرح صحيح مسلم للنووي ١٣/٦٩.

قوله تعالى: ﴿وَأَتْرُكُ الْبَحْرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُّعْرِفُونَ﴾ ﴿١٤﴾

قال ابن عباس: ﴿رَهَوًّا﴾ أي: طريقاً. وقاله كعب والحسن. وعن ابن عباس أيضاً: سَمْتًا. الضَّحَاكُ والرَّيْبُ: سهلاً. عكرمة: يَبَسًا^(١)، لقوله: ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمُ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [طه: ٧٧]. وقيل: مفترقاً. مجاهد: منفرجاً^(٢). وعنه: يابساً^(٣). وعنه: ساكناً^(٤). وهو المعروف في اللغة. وقاله قتادة^(٥) والهروي. وقال غيرهما: منفرجاً. وقال ابن عرفة: وهما يرجعان إلى معنى واحد وإن اختلف لفظاهما، لأنه إذا سكن جَرِيهُ انفرج. وكذلك كان البحر يسكن جريه وانفرج لموسى عليه السلام. والرَّهْوُ عند العرب: الساكن، يقال: جاءت الخيل رَهَوًّا، أي: ساكنة. قال:

والخيل تَمْرَعُ رَهَوًّا فِي أَعْنَتِهَا كَالطَّيْرِ تَجُو مِنَ الشُّؤْبُوبِ ذِي الْبَرْدِ^(٦)

الجوهري^(٧): ويقال: افعل ذلك رَهَوًّا، أي: ساكناً على هَيْتِكَ. وعيش رَاهٍ، أي: ساكنٌ رَافِعٌ. وَخَمْسٌ^(٨) رَاهٍ: إذا كان سهلاً. ورها البحر، أي: سَكَنَ. وقال أبو عبيدة^(٩): رَهَا بَيْنَ رَجْلَيْهِ يَرَهُو رَهَوًّا، أي: فتح، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَتْرُكُ الْبَحْرَ

(١) أخرج هذه الأقوال دون قول ابن عباس الأول وقول الحسن الطبري ٢١/٣٥-٣٧، أما قول ابن عباس الأول فقد أورده الواحدي في الوسيط ٤/٨٩، وقول الحسن أخرجه ابن الأنباري في الأضداد ص ١٥١.

(٢) أورد هذا القول أبو الليث في تفسيره ٣/٢١٨، والماوردي في النكت والعيون ٥/٢٥٠، والسيوطي في الدر المنثور ٦/٣٠ وعزاه لعبد بن حميد.

(٣) تفسير مجاهد ٢/٥٨٩، وعلقه عنه البخاري قبل الحديث (٤٨٢٠).

(٤) معاني القرآن للنحاس ٦/٤٠٣، والوسيط ٤/٨٨، وعلقه البخاري قبل حديث (٤٨٢٠).

(٥) أخرجه ابن الأنباري في الأضداد ص ١٥١.

(٦) قائله النابغة الذبياني وهو في ديوانه ص ٣٤، وفيه: عَزْبًا، بدل: رهوًّا. والعَرَبُ الفرس الكثير الجري. وتمزع، أي: تسرع. والشؤبوب: الدفعة من المطر. القاموس (غرب) و(مزع) و(شأب).

(٧) في الصحاح (رها).

(٨) الخمس: من أظلم الإبل، وهي أن ترعى ثلاثة أيام، وترد اليوم الرابع، وقد أخمس الرجل، أي: وردت إبله خمساً. الصحاح (خمس).

(٩) في (م): أبو عبيد.

رَهْوًا ﴿١﴾. والرَّهْوُ: السيرُ السَّهْلُ، يقال: جاءت الخيل رَهْوًا. قال ابن الأعرابي: رَهَا يَرَهُو في السير، أي: رَفَقَ. قال القَاطمي في نعت الرُّكَّابِ:

يَمْشِينَ رَهْوًا فلا الأعجازُ خاذِلَةٌ ولا الصدورُ على الأعجازِ تَتَكَلِّمُ^(١)

والرَّهْوُ والرَّهْوَةُ: المكان المرتفع، والمنخفض أيضاً يجتمع فيه الماء، وهو من الأضداد. وقال أبو عبيد: الرَّهْوُ: الجَوْبَةُ تكون في^(٢) مَحَلَّة القوم يسيل فيها ماء المطر وغيره^(٣). وفي الحديث أنه قضي أن «لا شَفْعَةَ في فِئاء ولا طريقٍ ولا مَنَقَبَةَ ولا رُكْحٍ ولا رَهْوٍ»^(٤). والجمع رِهَاء. والرَّهْوُ: المرأة الواسعة الهَنِّ، حكاه النَّضْر بن شُمَيْلٍ. والرَّهْوُ: ضربٌ من الطير، ويقال: هو الكُرْكِيُّ.

قال الهَرَوِيُّ: ويجوز أن يكون «رَهْوًا» من نعت موسى - وقاله القشيري - أي: سِرٌّ ساكنًا على هَيْبَتِكَ، فالرَّهْوُ من نعت موسى وقومه لا من نعت البحر. وعلى الأول هو من نعت البحر، أي: اتركه ساكنًا كما هو قد انفرق، فلا تأمره بالانضمام حتى يدخل فرعون وقومه^(٥).

قال قتادة: أراد موسى أن يضرب البحر لَمَّا قطعه بعصاه حتى يلتئم، وخاف أن يتبعه فرعون، فقليل له هذا^(٦).

وقيل: ليس الرَّهْوُ من السكون، بل هو الفُرجة بين الشيتين، يقال: رَهَا ما بين الرِّجْلين، أي: فرج. فقولُه: «رَهْوًا» أي: منفرجًا. وقال الليث: الرَّهْوُ مَشْيٌ في

(١) ديوان القاطمي ص ٢٦.

(٢) بعدها في (د) و(ظ): فناء. اهـ. والجَوْبَةُ: الحفرة المستديرة الواسعة. المعجم الوسيط.

(٣) غريب الحديث ١٢٢/٣.

(٤) أورده أبو عبيد في غريب الحديث ١٢١/٣، وابن الأثير في النهاية ٢٨٥/٢. قال أبو عبيد: المَنَقَبَةُ هي الطريق الضيق يكون بين الدارين لا يمكن أن يسلكه أحد. والرُّكْحُ: ناحية البيت من ورائه، وربما كان فضاء لا بناء فيه.

(٥) بنحوه في تهذيب اللغة ٤٠٤/٦.

(٦) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢٠٨/٢، والطبري ٣٥/٢١.

سكون^(١)، يقال: رها يرهو رَهْوًا فهو راهٍ. وعيشٌ راهٍ: وادعٌ خافضٌ. وافعل ذلك سَهْوًا رَهْوًا، أي: ساكنًا بغير شدّة. وقد ذكرناه آنفًا.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: إن فرعون وقومه ﴿جُنُدٌ مُّعْرِفُونَ﴾ أخبر موسى بذلك ليسكن قلبه.

قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَّتٍ وَعَيْونٍ ﴿١٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿١٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَنَكِهِينَ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكَوْا مِنْ جَنَّتٍ وَعَيْونٍ . وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿كَمْ﴾ للتكثير. وقد مضى الكلام في معنى هذه الآية في «الشعراء» مستوفى^(٢). ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَنَكِهِينَ﴾ التَّعْمَةُ - بالفتح - : التنعيم، يقال: نَعَّمَهُ اللهُ وَنَاعَمَهُ فَتَنَعَّمْ، وامرأةٌ مُنْعَمَةٌ وَمُنَاعِمَةٌ، بمعنى. والتَّعْمَةُ - بالكسر - : اليد والصنعة والمِنَّةُ وما أُنْعِمَ به عليك. وكذلك التُّعْمَى. فإن فتحت النون مددت وقلت: التَّعْمَاءُ. والتنعيم مثله. وفلانٌ واسعُ النعمة، أي: واسعُ المال، جميعه عن الجوهري^(٣). وقال ابن عمر: المراد بالتَّعْمَةُ نيلُ مصر. ابن لهيعة: الفَيْوْمُ^(٤). ابن زياد: أرضُ مصرَ لكثرة خيرها. وقيل: ما كانوا فيه من السَّعة والدَّعة. وقد يقال: نَعْمَةٌ وَنَعْمَةٌ؛ بفتح النون وكسرها، حكاه الماوردي^(٥). قال: وفي الفرق بينهما وجهان:

أحدهما: أنها بكسر النون في المِلْكِ، وبفتحها في البَدَنِ والدِّينِ. قاله النَّضْرُ بن شُمَيْلٍ .

الثاني: أنها بالكسر من المِنَّةِ؛ وهو الإفضال والعطيَّةُ، وبالفتح من التنعيم؛ وهو

(١) ذكر قول الليث الأزهري في تهذيب اللغة ٤٠٣/٦ .

(٢) ١٠٢/١٣ وما بعدها .

(٣) في الصحاح (نعم).

(٤) الفيوم: موضع بمصر، بينها وبين القسطنطين أربعة أيام، بينهما مفازة لا ماء بها ولا مرعى . معجم البلدان ٢٨٦/٤ .

(٥) في النكت والعيون ٢٥١/٥ - ٢٥٢ .

سَعَةُ العَيْشِ وَالرَّاحَةِ. قاله ابن زياد.

قلت: هذا الفرق هو الذي وقع في الصحاح وقد ذكرناه .

وقرأ أبو رجاء والحسن وأبو الأشهب والأعرج وأبو جعفر وشيبة: «فَكِهَيْنَ» بغير ألف^(١)، ومعناه: أَشْرِينِ بَطْرِينِ^(٢). قال الجوهري: فِكَةُ الرَّجْلِ - بالكسر - فهو فِكَةٌ: إذا كان طَيِّبَ النَّفْسِ مَزَّاحًا. والفِكَةُ أيضًا الأَشْرُ البَطْرُ. وقرئ: «وَنَعْمَةٌ كَانُوا فِيهَا فَكِهَيْنَ»، أي: أَشْرِينِ بَطْرِينِ. و«فَاكِهَيْنَ» أي: ناعمين^(٣). القشيري: «فَاكِهَيْنَ»: لا هين مازحين، يقال: إنه لفاكه، أي مَزَّاح. وفيه فكاهاة، أي: مَزَّح. الثعلبي: وهما لغتان كالحاذر والحذير، والفاره والفره. وقيل: إن الفاكه هو المستمتع بأنواع اللذة؛ كما يتمتع الآكل بأنواع الفاكهة^(٤). والفاكهة: فضلٌ عن القوت الذي لا بد منه.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾

قال الزَّجَّاج: أي الأمر كذلك؛ فيوقف على «كَذَلِكَ»^(٥). وقيل: إن الكاف في موضع نصب، على تقدير: نفعل فعلاً كذلك بمن نريد إهلاكه^(٦). وقال الكلبي: «كَذَلِكَ» أفعل بمن عصاني^(٧). وقيل: «كَذَلِكَ» كان أمرهم فأهلكوا. ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ يعني بني إسرائيل، ملكهم الله تعالى أرض مصر بعد أن كانوا فيها مستعبدين، فصاروا لها وارثين؛ لوصول ذلك إليهم كوصول الميراث^(٨). ونظيره:

(١) قراءة أبي رجاء والحسن في تفسير الطبري ٣٩/٢١، والمحزر الوجيز ٧٣/٥، وقراءة أبي جعفر في النشر ٣٥٤/٢، وهو من العشرة.

(٢) تفسير الطبري ٣٩/٢١.

(٣) الصحاح للجوهري (فكه).

(٤) أورد هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٢٥٢/٥، ونسبه لابن عيسى.

(٥) معاني القرآن للزجاج ٤٢٦/٤.

(٦) مشكل إعراب القرآن ٦٥٦/٢.

(٧) الوسيط ٨٩/٤، وتفسير البغوي ١٥٢/٤.

(٨) النكت والعيون ٢٥٢/٥.

﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمغربَهَا﴾ الآية [الأعراف: ١٣٧].

قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ ﴿١٩﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ أي: لكفرهم. ﴿وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ﴾ أي: مؤخَّرين بالغرق^(١). وكانت العرب تقول عند موت السيد منهم: بكت له السماء والأرض، أي: عمَّت مصيبتة الأشياء حتى بكته السماء والأرض والرياح والبرق، وبكته الليالي الشاتيات. قال الشاعر:

الريحُ تبكي شَجْوَهُ والبرقُ يلمع في غمامه^(٢)
وقال آخر:

والشمسُ طالعةٌ ليست بكاسفة تبكي عليك نجومَ اللَّيْلِ والقمر^(٣)
وقالت الخارجية:

أيا شجرَ الخابور مَالِكٌ مُورِقًا كأنك لم تجزع على ابن طريف^(٤)
وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغةً في وجوب الجَزَع والبكاءِ عليه^(٥).

والمعنى: أنهم هلكوا فلم تعظم مصيبتهم، ولم يوجد لهم فُقْد.

وقيل: في الكلام إضمار، أي: ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من

(١) ذكر هذا الكلام الماوردي في النكت والعيون ٢٥٣/٥ ونسبه للكلبي.

(٢) البيت ليزيد بن المفرغ الحميري، وهو في ديوانه ص ١٤٣ براوية: فالريح تبكي شجوها... والبرق يضحك في الغمامة.

(٣) قائله جرير، وهو في ديوانه ٧٣٦/٢ وجاء الشطر الأول فيه: فالشمس كاسفة ليست بطالعة. وهو براوية المصنف في الكامل ٨٣٣/٢، والعقد الفريد ٩٦/١، والمحمر الوجيز ٧٤/٥ وغيرهم وقوله: «نجوم» بالفتح، نصبت بـ «كاسفة» يعني أنها تكسف النجوم والقمر بإفراط ضيائها. ينظر الكامل للمبرد.

(٤) أورده ابن عبد ربه في العقد الفريد ٢٦٩/٣، والزمخشري في الكشاف ٥٠٤/٣.

(٥) الكشاف ٥٠٤/٣.

الملائكة، كقوله تعالى: ﴿وَسَكِلَ الْفَرْتِيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] بل سُرُوا بهلاكهم. قاله الحسن^(١).

وروى يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مؤمن إلا وله في السماء بابان: بابٌ ينزل منه رزقه، وباب يدخل منه كلامه وعمله. فإذا مات، فقداه فبكيا عليه، ثم تلا: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾»^(٢).

يعني أنهم لم يعملوا على الأرض عملاً صالحاً تبكي عليهم لأجله، ولا صعد لهم إلى السماء عملٌ صالح فتبكي فقد ذلك.

وقال مجاهد: إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحاً^(٣). قال أبو يحيى: فعجبت من قوله، فقال: أتعجب! وما للأرض لا تبكي على عبد [كان] يَغْمُرُهَا بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ! وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسيحه وتكبيره فيها دَوِيٌّ كدَوِيِّ النحل!^(٤).

وقال عليّ وابن عباس رضي الله عنهما: إنه يبكي عليه مُصَلِّاهُ مِنَ الْأَرْضِ، ومُصَعِّدُ عَمَلِهِ مِنَ السَّمَاءِ. وتقدير الآية على هذا: فما بكت عليهم مصاعدُ عملهم من السماء، ولا مواضعُ عبادتهم من الأرض. وهو معنى قول سعيد بن جبير^(٥). وفي بكاء السماء والأرض ثلاثة أوجه: أحدها أنه كالمعروف من بكاء الحيوان. ويشبه أن يكون قول مجاهد^(٦). وقال شريح الحضرمي: قال النبي ﷺ: «إن الإسلام

(١) ينظر النكت والعيون ٢٥٢/٥.

(٢) النكت والعيون ٢٥٢/٥ - ٢٥٣، وأخرجه الترمذي (٣٢٥٥) وقال: هذا حديث لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه، وموسى بن عبيدة وي زيد بن أبان يضعفان في الحديث.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة ٥٧٠/١٣، والطبري ٤٢/٢١.

(٤) النكت والعيون ٢٥٢/٥، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أبو الشيخ في العظمة (١١٨٩) وأبو يحيى: هو القنات، وهو لين الحديث كما في التقريب.

(٥) النكت والعيون ٢٥٢/٥ وأخرج قول علي ابن المبارك في الزهد (٣٣٦)، وقول ابن عباس الطبري ٤٢/٢١، والبيهقي في الشعب (٣٢٨٨) بنحوه مطولاً، وقول سعيد بن جبير الطبري ٤٣/٢١.

(٦) النكت والعيون ٢٥٣/٥.

بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ، فطوبى للغرباء يوم القيامة. قيل: مَنْ هم يا رسول الله؟ قال: هم الذين إذا فسد الناس صَلَّحُوا». ثم قال: «ألا لا عُربَةَ على مؤمن، وما مات مؤمن في عُربة غائباً عنه بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض». ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ ثم قال: «ألا إنهما لا يبكيان على الكافر»^(١).

قلت: وذكر أبو نعيم [حدثنا] محمد بن مَعمر قال: حدثنا أبو شعيب الحرَّاني قال: حدثنا يحيى بن عبد الله قال: حدثنا الأوزاعيُّ قال: حدثني عطاء الخراساني قال: ما من عبد يسجد لله سجدة في بُقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة، وبكت عليه يوم يموت^(٢).

وقيل: بكأوهما: حمرة أطرافهما. قاله عليُّ بن أبي طالب ؓ وعطاء^(٣) والسديُّ والترمذيُّ محمد بنُ عليٍّ وحكاه عن الحسن. قال السديُّ: لَمَّا قُتِلَ الحَسينُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما، بكت عليه السماء، وبكأوها حمرتها^(٤). وحكى جرير عن يزيد بن أبي زياد قال: لَمَّا قُتِلَ الحَسينُ بنُ عليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنهما، احمرَّ له آفاقُ السماء أربعة أشهر. قال يزيد: واحمرارها بكأؤها^(٥). وقال محمد بن سيرين: أخبرونا أن الحمرة التي تكون مع الشَّفَق لم تكن حتى قُتِلَ الحَسينُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما^(٦). وقال سليمان القاضي: مُطِرْنَا دَمًا يَوْمَ قُتِلَ الحَسينُ.

(١) أخرجه الطبري ٤٣/٢١ مختصراً، وهو مرسل، والصحيح منه قوله: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود كما بدأ، فطوبى للغرباء»، وسلف ٥/٢٦٣.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم ١٩٧/٥ وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد (٣٤٠) عن الأوزاعي عن عطاء.

(٣) النكت والعيون ٥/٢٥٣، وقول عطاء أخرجه الطبري ٤١/٢١.

(٤) أخرجه الطبري ٤١/٢١، والسدي - وهو محمد بن مروان - متَّهم بالكذب كما في التقريب.

(٥) النكت والعيون ٥/٢٥٣، ويزيد بن أبي زياد ضعفه ابن حجر في التقريب، وقال: كَبُرَ فتغير وصار يتلقَّن وكان شيعياً.

(٦) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ١٤/٢٢٨.

قلت: روى الدَّارَقُطْنِيُّ من حديث مالك بن أنس، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال النبي ﷺ: «الشفق الحمرة»^(١).

وعن عبادة بن الصامت وشداد بن أوس قالوا: الشفق شفقان: الحمرة والبياض، فإذا غابت الحمرة حَلَّت الصلاة. وعن أبي هريرة قال: الشفق الحمرة^(٢). وهذا يردُّ ما حكاه ابن سيرين.

وقد تقدَّم في «سبحان»^(٣) عن قرّة بن خالد قال: ما بكت السماء على أحد إلا على يحيى بن زكريا والحسين بن عليّ، وحمرةً بكاؤها.

وقال محمد بن عليّ الترمذي: البكاء إدرار الشيء، فإذا أدّرت العين بمائها، قيل: بكت، وإذا أدّرت السماء بحمرةها، قيل: بكت، وإذا أدّرت الأرض بغيرتها، قيل: بكت؛ لأن المؤمن نورٌ ومعه نورُ الله، فالأرض مضيئةٌ بنوره وإن غاب عن عينيك، فإن فقدت نورَ المؤمن اغبرّت فدرّت باغبرارها؛ لأنها كانت غبراءً بخطايا أهل الشرك، وإنما صارت مضيئةً بنور المؤمن؛ فإذا قبض المؤمن منها دَرَّت بغيرتها. وقال أنس: لَمَّا كان اليوم الذي دخل فيه النبي ﷺ المدينة، أضاء كلُّ شيء، فلمَّا كان اليوم الذي قبض فيه، أظلم كلُّ شيء، وإنا لفي دفنه ما نفضنا الأيدي منه حتى أنكرنا قلوبنا.^(٤)

وأما بكاء السماء فحمرةً كما قال الحسن. وقال نصر بن عاصم: إن أول الآيات حُمْرَةٌ تظهر، وإنما ذلك لدنو الساعة، فتدُرُّ بالبكاء لخلائها من أنوار المؤمنين.

(١) سنن الدارقطني (١٠٥٦). قال البيهقي في السنن الكبرى ١/٣٧٣: الصحيح موقوف.

(٢) سنن الدارقطني (١٠٥٤) (١٠٥٥). قال البيهقي في معرفة السنن والآثار ٢/٢٠٥: لا يصح فيه شيء وعن النبي ﷺ...

(٣) ٢٧/١٣.

(٤) سلف ٥/٣٤٦.

وقيل: بكاؤها: أمارَةٌ تظهر منها تدلُّ على أسف وحزن^(١).

قلت: والقولُ الأوَّلُ أظهر؛ إذ لا استحالة في ذلك. وإذا كانت السماوات والأرض تُسبِّحُ وتسمع وتتكلَّم كما بيَّنَّاه في «سبحان ومريم وحَم فصلت»^(٢)، فكذلك تبكي، مع ما جاء من الخبر في ذلك، والله أعلم بصواب هذه الأقوال.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَجَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾

يعني ما كانت القبط تفعل بهم بأمر فرعون، من قتل الأبناء واستخدام النساء، واستعبادهم إياهم، وتكلفتهم الأعمال الشاقَّة. ﴿مِنْ فِرْعَوْنَ﴾ بدلٌ من «الْعَذَابِ الْمُهِينِ»^(٣)، فلا تتعلق «مِنْ» بقوله: «مِنْ الْعَذَابِ» لأنه قد وُصِفَ، وهو لا يعمل بعد الوصف عمل الفعل. وقيل: أي: أنجيناهم من العذاب ومن فرعون. ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيًّا مِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي: جبَّارًا من المشركين. وليس هذا عُلوٌّ مَدْح، بل هو عُلوٌّ في الإسراف، كقوله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٤] وقيل: هذا العلوُّ هو الترفُّع عن عبادة الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَىٰ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْنَاهُمْ﴾ يعني بني إسرائيل. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على علم مِنَّا بهم لكثرة الأنبياء منهم. ﴿عَلَىٰ الْعَالَمِينَ﴾ أي: عالمي زمانهم، بدليل قوله لهذه الأمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. وهذا قولٌ قتادة وغيره^(٤). وقيل: على كلِّ العالمين بما جعل فيهم من الأنبياء. وهذا خاصَّةٌ لهم وليس لغيرهم. حكاة

(١) النكت والعيون ٢٥٣/٥.

(٢) ٨٩/١٣ وما بعدها، و١٣/٥٢١ - ٥٢٢، وعند تفسير الآية (١١) من سورة فصلت.

(٣) الكشاف ٥٠٤/٣، والمححر الوجيز ٧٤/٥.

(٤) أخرجه الطبري ٤٦/٢١ بنحوه.

ابن عيسى^(١) والزمخشري^(٢) وغيرهما. ويكون قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ أي: بعد بني إسرائيل. والله أعلم. وقيل: يرجع هذا الاختيار إلى تخليصهم من الغرق، وإيراثهم الأرض بعد فرعون.

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّنْتَهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَتْؤًا مُّبِينٌ﴾ (٣٣)

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّنْتَهُمْ مِّنَ الْآيَاتِ﴾ أي: من معجزات موسى^(٣) ﴿مَا فِيهِ بَلَتْؤًا مُّبِينٌ﴾ قال قتادة: الآيات: إنجائهم من فرعون، وقلق البحر لهم، وتظليل الغمام عليهم، وإنزال المن والسلوى^(٤). ويكون هذا الخطاب متوجهاً إلى بني إسرائيل. وقيل: إنها العصا واليد. ويشبه أن يكون قول الفراء^(٥). ويكون الخطاب متوجهاً إلى قوم فرعون. وقول ثالث: إنه الشر الذي كفهم عنه والخير الذي أمرهم به. قاله عبد الرحمن بن زيد. ويكون الخطاب متوجهاً إلى الفريقين معاً من قوم فرعون وبني إسرائيل^(٦).

وفي قوله: «بَلَاءٌ مُّبِينٌ» أربعة أوجه:

أحدها: نعمة ظاهرة. قاله الحسن وقتادة. كما قال الله تعالى: ﴿وَلِيَسْبِي الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسْبًا﴾ [الأنفال: ١٧]. وقال زهير:

فأبلاهما خير البلاء الذي يَبْلُو^(٧)

الثاني: عذاب شديد. قاله الفراء^(٨).

(١) النكت والعيون ٢٥٤/٥.

(٢) في الكشف ٥٠٤/٣.

(٣) في (م): من المعجزات لموسى.

(٤) النكت والعيون ٢٥٤/٥، وأخرجه الطبري ٤٧/٢١.

(٥) قول الفراء في معاني القرآن له ٤٢/٣ بنحو قول قتادة السالف ولم يقل: إنها العصا واليد.

(٦) النكت والعيون ٢٥٤/٥.

(٧) عجز بيت له وصدره: رأى الله بالإحسان ما فعلا بكم، وهو في ديوانه ص ١٠٩. وسلف ٧٢/١٨.

(٨) في معاني القرآن ٤٢/٣.

الثالث: اختبار يتميِّز به المؤمن من الكافر. قاله عبد الرحمن بن زيد^(١). وعنه أيضاً: ابتلاؤهم بالرِّخاء والشدة^(٢)، ثم قرأ: ﴿وَبَلَّوْكُمْ بِالسَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ﴾ يعني كفارَ قريش^(٣) ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ﴾ ابتداء وخبر، مثل: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٢٩]

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ أي: بمبعوثين. ﴿فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنشَرَ الله الموتى فُنِشِرُوا. وقد تقدَّم^(٤). والمنشورون: المبعوثون. قيل: إنَّ قائل هذا من كفار قريش أبو جهل، قال: يا محمد، إن كنت صادقاً في قولك، فابعث لنا رجلين من آبائنا: أحدهما: قصيُّ بن كلاب، فإنه كان رجلاً صادقاً، لنسأله عمَّا يكون بعد الموت. وهذا القول من أبي جهل من أضعف الشبهات؛ لأن الإعادة إنما هي للجزاء لا للتكليف، فكأنه قال: إن كنت صادقاً في إعادتهم للجزاء، فأعدهم للتكليف. وهو كقول قائل لو قال: إن كان ينشأ بعدنا قوم من الأبناء، فلم لا يرجع من مضى من الآباء. حكاها الماوردي^(٥).

ثم قيل: «فَأَتُوا بِآبَائِنَا» مخاطبةٌ للنبي ﷺ وحده، كقوله: ﴿رَبِّ أَرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩] قاله الفراء^(٦). وقيل: مخاطبةٌ له ولأتباعه.

(١) أورد هذه الأوجه الثلاثة الماوردي في النكت والعيون ٢٥٤/٥.

(٢) تفسير البغوي ١٥٢/٤.

(٣) النكت والعيون ٢٥٥/٥.

(٤) ٣٠٦/٤.

(٥) في النكت والعيون ٢٥٥/٥.

(٦) في معاني القرآن ٤٢/٣.

قوله تعالى: ﴿أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبَّعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْتَهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِبٍ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَهْمَ خَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبَّعَ﴾ هذا استفهام إنكار، أي: إنهم مستحقون في هذا القول العذاب؛ إذ ليسوا خيراً من قوم تُبَّعَ والأمم المهلكة، وإذا أهلكنا أولئك فكذا هؤلاء. وقيل: المعنى: أهم أظهرُ نعمةً وأكثرُ أموالاً أم قومٌ تُبَّعَ؟ وقيل: أهم أعزُّ وأشدُّ وأمنع أم قومٌ تُبَّعَ؟^(١)

وليس المراد بتبَّعٍ رجلاً واحداً، بل المرادُ به ملوكُ اليمن، فكانوا يسمُّون ملوكهم التبابعة. فتبَّع لقبٌ للملك منهم، كالخليفة للمسلمين، وكسرى للفُرس، وقَيْصر للروم. وقال أبو عبيدة^(٢): سُمِّيَ كلُّ واحد منهم تُبَّعاً لأنه يتبَّع صاحبه. قال الجوهري^(٣): والتبابعة ملوك اليمن، واحدهم تبَّع، والتبَّع أيضاً الظلُّ، وقال: يَرْدُ المِياةَ حَضِيرَةً وَنَفِيضَةً وَرَدَّ القِطَاةَ إِذَا اسْمَأَلَ التُّبَّعُ^(٤) والتبَّع أيضاً ضربٌ من الطير.

وقال السهيلي^(٥): تبَّع اسمٌ لكل ملكٍ ملَّك اليمن والشَّحر^(٦) وحضرموت. وإن ملَّك اليمن وحدها لم يُقل له تبَّع. قاله المسعودي. فمن التبابعة: الحارث الرائش،

(١) النكت والعيون ٢٥٥/٥.

(٢) في مجاز القرآن ٢٠٩/٢.

(٣) في الصحاح (تبَّع).

(٤) أورده الأصمعي في الأصمعيات ص ١٠٣، وابن السكيت في إصلاح المنطق ص ٣٩٢، وابن دريد في الاشتقاق ٢٠٧/١ ونسبه لسعدى بنت الشمردل الجهنية، والحضيرية: النفر يُغزى بهم، ومقدمة الجيش. القاموس (حضر). والنفيضة: القوم الذين يُنْفَضون، يتقدمون الجيش. واسمأل: ضمَّر. ينظر الاشتقاق.

(٥) في التعريف والإعلام ص ١٥٣ - ١٥٥.

(٦) الشَّحر: هو صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. معجم البلدان ٣٢٧/٣.

وهو ابن همال ذي شدد^(١). وأبرهه ذو المنار. وعمرو ذو الأذعار. وشمر بن مالك، الذي تنسب إليه سَمْرَقَنْد. وأفريقيس^(٢) بن قيس، الذي ساق البربر إلى أفريقية من أرض كنعان، وبه سُميت إفريقية.

والظاهر من الآيات: أن الله سبحانه إنما أراد واحداً من هؤلاء، وكانت العرب تعرفه بهذا الاسم أشد من معرفة غيره، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام: «ولا أدري أَتَبَّعُ لَعَيْنِ أُمِّ لَآ»^(٣). ثم قد رُوِيَ عنه أنه قال: «لَا تَسُبُّوا تَبَّعًا فَإِنَّهُ كَانَ مُؤْمِنًا»^(٤). فهذا يدلُّك على أنه كان واحداً بعينه، وهو - والله أعلم - أبو كَرِب الذي كسا البيت بعد ما أراد غزوه، وبعد ما غزا المدينة وأراد خرابها، ثم انصرف عنها لَمَّا أُخْبِرَ أنها مُهَاجِرُ نَبِيِّ اسْمِهِ أَحْمَد. وقال شعراً أودعه عند أهلها، فكانوا يتوارثونه كابراً عن كابر إلى أن هاجر النبي ﷺ، فأدَّوهُ إليه. ويقال: كان الكتاب والشعر عند أبي أيوب خالد ابن زيد. وفيه:

شهدتُ على أحمدٍ أنه رسولٌ من الله باري التَّسَمِّ
فلو مُدَّ عُمري إلى عُمري لَكُنْتُ وزيراً له وابنَ عَمِّ^(٥)

(١) في (م): ذي سدد، وفي الروض الأنف ١/٣٤: وهو ابن همال بن ذي شدد.

(٢) في التعريف والإعلام: وإفريقيش.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٧٤) من طريق ابن أبي ذئب، عن سعيد بن أبي سعيد، عن أبي هريرة مرفوعاً. وأخرجه البخاري في التاريخ الكبير ١/١٥٣ عن الزهري مرسلأ، وقال: وهو أصح.

(٤) أخرجه أحمد (٢٢٨٨٠)، والطبراني في الكبير (٦٠١٣)، وابن شاهين في ناسخ الحديث ومنسوخه (٦٦٠) من طريق ابن لهيعة، عن عمرو بن جابر، عن سهل بن سعد ؓ. قال ابن حجر في تخریج أحاديث الكشاف ص ١٤٨: فيه ابن لهيعة عن عمرو بن جابر وهما ضعيفان.

وأخرجه الطبراني في الكبير (١١٧٩٠)، وفي الأوسط (١٤٤١)، والخطيب في تاريخ بغداد ٣/٢٠٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما. وإسناده ضعيف، فيه مؤمِّل بن إسماعيل وهو صدوق سيئ الحفظ، وفيه سماك بن حرب عن عكرمة، وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة، وقد تغير بأخرة، فكان ربما تَلَقَّن. قاله ابن حجر في التقریب.

(٥) أورد هذين البيتين غير السهلي ابن رشيقي في العمدة في محاسن الشعر وآدابه ٢/٢٢٦.

وذكر الزجَّاج^(١) وابن أبي الدنيا والزمخشري^(٢) وغيرهم أنه حُفِر قبر له بصنعاء - ويقال: بناحية حمير - في الإسلام، فوجد فيه امرأتان صحيحتان، وعند رؤوسهما لوحٌ من فضةٍ مكتوبٌ فيه بالذهب: هذا قبر حُبَيِّ ولَمَيْس. ويروى أيضًا: حُبَيِّ وتماضر. ويروى أيضًا: هذا قبر رضوى وقبر حُبَيِّ ابنتا تَبَع، ماتتا وهما يشهدان أن لا إله إلا الله ولا يشركان به شيئًا، وعلى ذلك مات الصالحون قبلهما.

قلت: وروى ابن إسحاق وغيره أنه كان في الكتاب الذي كتبه: «أما بعد، فإني آمنت بك وبكتابك الذي أنزل عليك، وأنا على دينك وسنتك، وآمنتُ برَبِّك وربَّ كلِّ شيء، وآمنتُ بكلِّ ما جاء من ربِّك من شرائع الإسلام، فإن أدركتُك فيها ونعمت، وإن لم أدركتُك فاشفع لي ولا تنسني يوم القيامة، فإني من أمتك الأولين وبايعتُك قبل مجيئك، وأنا على ملَّتِك وملَّةِ أبيك إبراهيم عليه السلام». ثم ختم الكتاب ونقش عليه: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]. وكتب على عنوانه: «إلى محمد بن عبد الله نبيِّ الله ورسوله، خاتم النبيِّن ورسولِ ربِّ العالمين ﷺ. من تَبَعِ الأوَّل». وقد ذكرنا بقيَّة خبره وأوَّلَه في «اللُّمَع اللُّؤلؤيَّة في^(٣) شرح العشر بينات النبوية» للفارابي رحمه الله. وكان من اليوم الذي مات فيه تَبَع إلى اليوم الذي بُعث فيه النبيُّ ﷺ ألفُ سنة لا يزيد ولا ينقص.

واختلف هل كان نبيًّا أو ملكًا؟ فقال ابن عباس: كان تَبَع نبيًّا^(٤). وقال كعب: كان تَبَع ملكًا من الملوك، وكان قومه كُهَّانًا، وكان معهم قوم من أهل الكتاب، فأمر الفريقين أن يقرب كلُّ فريق منهم قُرْبَانًا ففعلوا، فَتُقْبَل قربان أهل الكتاب فأسلم^(٥).

(١) في معاني القرآن ٤/٤٢٧.

(٢) في الكشف ٣/٥٠٥.

(٣) لفظة: في، ليست في (م).

(٤) المحرر الوجيز ٥/٧٥.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٦/٤٠٩.

وقالت عائشة رضي الله عنها: لا تسبوا تُبَعًا فإنه كان رجلاً صالحاً^(١). وحكى قتادة أن تُبَعًا كان رجلاً من جَمِير، سار بالجيوش^(٢) حتى عبر الحيرة وأتى سَمَرْقَنْدَ فهدمها. حكاها الماوردي^(٣). وحكى الثعلبي عن قتادة أنه تُبَعُ الجَمِيرِي، وكان سار بالجيوش^(٤) حتى عبر الحيرة. وبنى سَمَرْقَنْدَ^(٥) وقتل وهدم البلاد.

وقال الكلبي: تُبَعٌ هو أبو كَرِب أسعد بن ملكي كَرِب^(٦)، وإنما سُمِّيَ تُبَعًا لأنه تَبِعَ مَنْ قبله. وقال سعيد بن جُبَيْر: هو الذي كسا البيت الحِجْرَات^(٧). وقال كعب: ذمَّ الله قومه ولم يذمَّه، وضرب بهم لقريش مثلاً لقربهم من دارهم وعظمتهم في نفوسهم، فلَمَّا أهلكهم الله تعالى ومَنْ قبلهم - لأنهم كانوا مجرمين - كان مَنْ أجرَمَ مع ضعف اليد وقلة العدد أحرى بالهلاك^(٨). وافتخر أهل اليمن بهذه الآية، إذ جعل الله قوم تُبَعٍ خيراً من قريش.

وقيل: سُمِّيَ أولُهم تُبَعًا لأنه اتبع قرن الشمس، وسافر في الشرق^(٩) مع العساكر. قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ «الَّذِينَ» في موضع رفع عطفت على «قَوْمٌ تُبَعٌ»^(١٠). «أَهْلَكْنَاهُمْ» صلته. ويكون «مِنْ قَبْلِهِمْ» متعلقاً به.

(١) أخرجه الطبري ٥٠/٢١، وابن شاهين في ناسخ الحديث ومنسوخه (٦٦٣).

(٢) في (د) و(م): بالجنود.

(٣) في النكت والعيون ٢٥٥/٥، وأخرجه الطبري ٤٩/٢١، والحاكم في المستدرک ٤٥٠/٢.

(٤) في (د) و(م): بالجنود.

(٥) تفسير البغوي ١٥٢/٤.

(٦) تفسير الرازي ٢٧/٢٤٩، ووقع في النسخ الخطية: ملكيكوب، وجاء في السيرة النبوية ٣٤/١: كُلي كَرِب. وفي البداية والنهاية ٣/١٢٢: كُلكي كَرِب.

(٧) تفسير البغوي ٤/١٥٣، والحجرات جمع حيرة، وهي ضرب من برود اليمن. القاموس (حبر).

(٨) النكت والعيون ٥/٢٥٦، وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/٢٠٨، والطبري ٥٠/٢١ منه قوله: ذم الله قومه ولم يذمَّه.

(٩) في (د) و(ظ): المشرق.

(١٠) إعراب القرآن للنحاس ٤/١٣٣.

ويجوز أن يكون «مِنْ قَبْلِهِمْ» صلة «الَّذِينَ»، ويكون في الظرف عائداً إلى الموصول. وإذا كان كذلك؛ كان «أَهْلَكْنَاهُمْ» على أحد أمرين: إمّا أن يقدر معه «قد»، فيكون في موضع الحال. أو يقدر حذف موصوف، كأنه قال: قومٌ أهلكناهم. والتقدير: أفلا تعتبرون أننا إذا قدرنا على إهلاك هؤلاء المذكورين؛ قدرنا على إهلاك المشركين.

ويجوز أن يكون «وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» ابتداء، خبره: «أَهْلَكْنَاهُمْ».

ويجوز أن يكون «الَّذِينَ» في موضع جرّ عطفاً على «تُبَعِّحُ» كأنه قال: قومٌ تُبَعِّحُ المهلكين من قبلهم.

ويجوز أن يكون «الَّذِينَ» في موضع نصب بإضمار فعل دلّ عليه «أَهْلَكْنَاهُمْ»^(١). والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْبٍ﴾ أي: غافلين؛ قاله مقاتل. وقيل: لاهين؛ وهو قول الكلبي^(٢). ﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: إلا بالأمر الحق؛ قاله مقاتل. وقيل: إلا للحق؛ قاله الكلبي^(٣) والحسن. وقيل: إلا لإقامة الحق وإظهاره من توحيد الله والتزام طاعته^(٤). وقد مضى هذا المعنى في «الأنبياء»^(٥). ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ يعني أكثر الناس ﴿لَا يَتْلُمُونَ﴾ ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾

﴿يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ هو يومُ القيامة، وسُمِّيَ بذلك لأن الله تعالى يَفْصِلُ فيه بين خلقه. دليله قوله تعالى: ﴿لَنْ نَنْفَعَكُمْ أَرْحَامَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ [المتحنة: ٣].

(١) المصدر السابق .

(٢) النكت والعيون ٢٥٦/٥ .

(٣) النكت والعيون ٢٥٦/٥ .

(٤) الوجيز بهامش مراح لبيد ٢٨٤/٢ .

(٥) ١٨٤/١٤ .

ونظيره قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُومِّدُ يَنْفِقُونَ﴾ [الروم: ١٤]. فـ «يَوْمَ الْفَضْلِ» مِيقَاتُ الْكُلِّ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتَنَا﴾ [النبا: ١٧] أي: الوقت المجمعول لتمييز المُسيء من المحسن والفصل بينهما؛ فريق في الجنة وفريق في السعير. وهذا غاية في التحذير والوعيد.

ولا خلاف بين القراء في رفع «مِيقَاتُهُمْ» على أنه خبر «إِنَّ»، واسمها «يَوْمَ الْفَضْلِ». وأجاز الكسائي والفرّاء^(١) نصب «مِيقَاتُهُمْ». بـ «إِنَّ»، و«يوم الفصل» ظرف في موضع خبر «إِنَّ»، أي: إن مِيقَاتُهُمْ يومَ الفصل.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلَى عَنْ مَوْلَى شَيْئًا﴾ «يَوْمَ» بدلٌ من «يوم» الأوّل^(٢). والمَوْلَى: الوَلِيُّ، وهو ابن العمِّ والناصر، أي: لا يدفع ابن عمِّ عن ابن عمِّه، ولا قريبٌ عن قريبه، ولا صديقٌ عن صديقه. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: لا ينصر المؤمنُ الكافرَ لقربائه. ونظيرُ هذه الآية: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة: ٤٨] الآية.

﴿إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ﴾ «مَنْ» رفع على البدل من المضمّر في «يُنصَرُونَ»^(٣)، كأنك قلت: لا يقوم أحدٌ إلا فلان. أو على الابتداء، والخبرُ مضمّر، كأنه قال: إلا مَنْ رحم الله فمغفورٌ له^(٤)، أو: فيُغني عنه ويُشفعُ ويُنصر. أو على البدل من «مَوْلَى» الأوّل، كأنه قال: لا يغني إلا مَنْ رحم الله^(٥). وهو عند الكسائي والفرّاء^(٦) نصب

(١) في معاني القرآن ٤٢/٣، ونقله المصنف بواسطة مكي في مشكل إعراب القرآن ٦٥٧/٢.

(٢) إعراب القرآن للنحاس ١٣٣/٤.

(٣) مشكل إعراب القرآن ٦٥٧/٢.

(٤) في (ظ): فإنه مغفور له.

(٥) ذكر هذا الوجه مكي في مشكل إعراب القرآن ٦٥٧/٢.

(٦) في معاني القرآن ٤٢/٣.

على الاستثناء المنقطع^(١)، أي: لكن من رحم الله لا ينالهم ما يحتاجون فيه إلى من يغنيهم من المخلوقين. ويجوز أن يكون استثناءً متصلًا، أي: لا يغني قريب عن قريب إلا المؤمنين، فإنه يؤذن لهم في شفاعته بعضهم لبعض.

﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي: المنتقم من أعدائه، الرحيم بأوليائه، كما قال: ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾ [غافر: ٣]، فقرن الوعد بالوعيد.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ ﴿٤٢﴾ طَعَامُ الْأَيْمِ ﴿٤٣﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٤﴾ كَغَلِي الْحَمِيمِ ﴿٤٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ﴾ كل ما في كتاب الله تعالى من ذكر الشجرة فالوقف عليه بالهاء، إلا حرفاً واحداً في سورة الدخان: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ﴾. طَعَامُ الْأَيْمِ^(٢). قاله ابن الأنباري.

﴿وَالْأَيْمِ﴾: الفاجر؛ قاله أبو الدرداء^(٣). وكذلك قرأ هو وابن مسعود. وقال همام بن الحارث: كان أبو الدرداء يُقرئ رجلاً: «إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَيْمِ» والرجل يقول: طعام اليتيم، فلمَّا لم يفهم قال له: «طعام الفاجر»^(٤). قال أبو بكر الأنباري: حدَّثني أبي قال: حدَّثنا نصر قال: حدَّثنا أبو عبيد قال: حدَّثنا نُعيم بن حماد، عن عبد العزيز بن محمد، عن ابن عجلان، عن عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود قال: علَّم عبد الله بن مسعود رجلاً: «إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُومِ طَعَامُ الْأَيْمِ» فقال الرجل: طعام اليتيم، فأعاد عليه عبد الله الصواب، وأعاد الرجل الخطأ، فلمَّا رأى عبد الله أن لسان الرجل لا يستقيم على الصواب قال له: أَمَا تُحَسِّنُ أَنْ تقول: طعام الفاجر؟ قال: بلى، قال: فافعل^(٥). ولا حجة في هذا للجَّهال من أهل الزَّيغ أنه يجوز

(١) إعراب القرآن للنحاس ٤/١٣٤، ومشكل إعراب القرآن ٢/٦٥٧.

(٢) في إيضاح الوقف والابتداء ١/٢٨٧.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٦/٤١٢، والكشاف ٣/٥٠٦.

(٤) أخرجه عبد الرزاق (٥٩٨٦)، والطبري ٢١/٥٤ بنحوه.

(٥) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن ص ١٨٣ بنحوه.

إبدال الحرف من القرآن بغيره، لأن ذلك إنما كان من عبد الله تقريباً للمتعلّم، وتوطئة منه له للرجوع إلى الصواب، واستعمال الحق والتكلّم بالحرف على إنزال الله وحكاية رسول الله ﷺ.

وقال الزّمخشري^(١): وبهذا يُستدل على أن إبدال كلمة مكان كلمة جائزٌ إذا كانت مؤدّيةً معناها. ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة، وهي أن يؤدّي القارئ المعاني على كمالها من غير أن يخرم منها شيئاً. قالوا: وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلاً إجازة؛ لأن في كلام العرب - خصوصاً في القرآن الذي هو معجزٌ بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه - من لطائف المعاني والأغراض ما لا يستقلُّ بأدائه لسانٌ من فارسية وغيرها، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يُحسن الفارسية، فلم يكن ذلك منه عن تحقّق وتبصّر. وروى عليّ بن الجعد، عن أبي يوسف، عن أبي حنيفة مثل قول صاحبيه في إنكار القراءة بالفارسية.

وشجرة الزقوم: الشجرة التي خلقها الله في جهنم، وسماها الشجرة الملعونة، فإذا جاع أهل النار التجؤوا إليها فأكلوا منها، فغليت في بطونهم كما يغلي الماء الحارّ. وشبّه ما يصير منها إلى بطونهم بالمُهّل، وهو النحاس المذاب.

وقراءة العامة: «تغلي» بالبناء حملاً على الشجرة. وقرأ ابن كثير وحفص وابن مُحَيِّصَن ورؤيس عن يعقوب: «يغلي» بالياء حملاً على الطعام^(٢)، وهو في معنى الشجرة. ولا يُحمل على المُهّل لأنه ذُكر للتشبيه^(٣). و«الأثيم»: الأثم، من أثم يأثم إنثماً؛ قاله القشيري وابن عيسى^(٤). وقيل: هو المشرك المكتسب للإثم؛ قاله يحيى بن سلام^(٥). وفي الصحاح: وقد أثم الرجل - بالكسر - إنثماً ومأثماً: إذا وقع في الإثم،

(١) في الكشاف ٥٠٦/٣ .

(٢) السبعة ص ٥٩٢ ، والتيسير ص ١٩٨ ، والنشر ٣٧١/٢ .

(٣) ينظر الحجة ١٦٦/٦ ، وزاد المسير ٣٤٩/٧ .

(٤) نقله عن ابن عيسى الماوردي في النكت والعيون ٢٥٧/٥ .

(٥) النكت والعيون ٢٥٧/٥ .

فهو أثم وأثيم وأثوم أيضاً^(١). فمعنى «طَعَامُ الْأَثِيمِ» أي: ذي الإثم الفاجر، وهو أبو جهل^(٢). وذلك أنه قال: يَعِدُّنَا مُحَمَّدٌ أَنْ فِي جَهَنَّمَ الرَّقُومَ، وإنما هو الشريد بالزُّبْدِ والتمر، فبيّن الله خلاف ما قاله. وحكى النقّاش عن مجاهد أن شجرة الرَّقُومِ أبو جهل^(٣).

قلت: وهذا لا يصحُّ عن مجاهد. وهو مردودٌ بما ذكرناه في هذه الشجرة في سورة «والصافات وسبحان»^(٤) أيضاً.

قوله تعالى: ﴿حُدُوهُ فَاعْتَلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ ﴿٤٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿حُدُوهُ﴾ أي: يقال للزَّبَانِيَةِ: خذوه، يعني الأثيم^(٥). ﴿فَاعْتَلُوهُ﴾ أي: جُرُّوه وسُوِّقُوهُ. والعَتَلُ: أن تأخذ بتلابيب الرجل فتعتله، أي: تجرّه إليك لتذهب به إلى حبس أو بليّة^(٦). عَتَلْتُ الرجل أعتلته وأعتلته عَتَلًا: إذا جذبته^(٧) جذباً عنيفاً. ورجل مِعْتَلٌ - بالكسر - . وقال يصف فرساً:

نَفْرَعُهُ فَرَعًا وَلَسْنَا نَعْتَلُهُ^(٨)

وفيه لغتان، عَتَلَهُ وَعَتَّنَهُ، باللام والنون جميعاً. قاله ابن السكّيت^(٩). وقرأ

(١) الصحاح (أثم).

(٢) الوسيط ٩١/٤ ، وتفسير البغوي ١٥٤/٤ .

(٣) النكت والعيون ٢٥٧/٥ .

(٤) ١١١/١٣ - ١١٢ ، ٤١/١٨ .

(٥) الوسيط ٩٢/٤ ، وتفسير البغوي ١٥٥/٤ .

(٦) تهذيب اللغة ٢٧٠/٢ .

(٧) بعدها في (د) و(ظ) : إليك .

(٨) أورده ابن قتيبة في المعاني الكبير ٧٧/١ ونسبه لأبي النجم ، وأبو علي القالي في أماليه ٥٧/١ دون نسبة .

(٩) الصحاح (عتل).

الكوفيون وأبو عمرو: «فَأَعْتَلُوهُ» بالكسر. وضم الباقون^(١). ﴿إِلَّا سَوَاءَ الْجَحِيمِ﴾: وسط الجحيم^(٢). ﴿ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ﴾. قال مقاتل: يضرب مالك خازن النار ضربة على رأس أبي جهل بِمِقْمَعٍ من حديد، فبِتَفْتَتُ رأسه عن دماغه، فيجري دماغه على جسده، ثم يصبُّ المَلَكُ فيه ماء حميماً قد انتهى حرُّه، فيقعُ في بطنه، فيقول المَلَكُ: ذُقِ العذاب^(٣). ونظيره: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩].

قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ قال ابن الأنباري^(٤): اجتمعت^(٥) العوامُّ على كسر «إنَّ». وروي عن الحسن بن^(٦) عليٍّ رحمه الله: «ذُقْ أَنْكَ» بفتح «أَنَّ»، وبها قرأ الكسائي^(٧). فمن كسر «إنَّ» وقف على «ذُقْ». ومن فتحها لم يقف على «ذُقْ»؛ لأن المعنى: ذق لأنك وبأنك أنت العزيز الكريم.

قال قتادة: نزلت في أبي جهل وكان قد قال: ما فيها أعزُّ مني ولا أكرم، فلذلك قيل له: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾^(٨). وقال عكرمة: التقى النبي ﷺ وأبو جهل، فقال النبي ﷺ: «إن الله أمرني أن أقول لك: أُولَى لك فأولى» فقال: بأي شيء

(١) السبعة ص ٥٩٣ ، والتيسير ص ١٩٨ .

(٢) النكت والعيون ٢٥٧/٥ .

(٣) زاد المسير ٣٥٠/٧ ، وأورده مختصراً الواحدي في الوسيط ٩٢/٤ ، والبغوي في تفسيره ١٥٥/٤ .

(٤) في إيضاح الوقف والابتداء ٨٨٩/٢ .

(٥) في (ز) و (ق) : أجمعت .

(٦) في النسخ : عن ، والمثبت من إيضاح الوقف والابتداء ، ومعاني القرآن للنحاس ٤١٤/٦ ، والكشاف

٥٠٧/٣ ، والمححر الوجيز ٤٠/٨ .

(٧) السبعة ص ٥٩٣ ، والتيسير ص ١٩٨ .

(٨) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢٠٩/٢ ، والطبري ٦١/٢١ بنحوه .

تهدّدني! والله ما تستطيع أنت ولا ربُّك أن تفعلوا بي شيئاً، إني لَمِنَ أعزِّ هذا الوادي وأكرمِهِ على قومه. فقتله الله يوم بدر وأذله، ونزلت هذه الآية^(١). أي يقول له الملك: دُقْ إنك أنت العزيز الكريم بزعمك. وقيل: هو على معنى الاستخفاف والتوبيخ والاستهزاء والإهانة والتنقيص، أي قال له: إنك أنت الذليل المهان. وهو كما قال قوم شعيب لشعيب: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] يعنون السفية الجاهل في أحد التأويلات على ما تقدّم^(٢). وهذا قول سعيد بن جبير^(٣).

﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمَتُّونَ﴾ أي تقول لهم الملائكة: إنَّ هذا ما كنتم تشكّون فيه في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُُوبٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾ لَمَّا ذكر مستقرَّ الكافرين وعذابهم، ذكر نَزْلَ المؤمنين ونعيمهم. وقرأ نافع وابن عامر: «في مُقَامٍ» بضم الميم، الباقون بالفتح^(٤). قال الكسائي: المُقَامُ المكان، والمُقَامُ الإقامة، كما قال:

عَفَّتِ الدِّيَارُ مَحَلُّهَا فَمُقَامُهَا^(٥)

قال الجوهري: وَأَمَّا المَقَامُ والمُقَامُ فقد يكون كلُّ واحد منهما بمعنى الإقامة، وقد يكون بمعنى موضع القيام؛ لأنك إذا جعلته مِن قام يقوم؛ فمفتوح، وإن جعلته

(١) أخرجه الواحدي في أسباب النزول ص ٣٩٨ مختصراً. وأورده السيوطي في الدر المشور ٣٣/٦ بنحوه وعزاه للاموي.

(٢) ١٩٤/١١.

(٣) أورده بنحوه الماوردي في النكت والعيون ٢٥٨/٥، وابن الجوزي في زاد المسير ٣٥٠/٧.

(٤) السبعة ص ٥٩٣، والتيسير ص ١٩٨.

(٥) صدر بيت للبيد، وهو في ديوانه ص ٢٩٧، وعجزه: بَمئى تأبّد غولُها فرجأُها، والكلام في معاني القرآن للنحاس ٤١٥/١. وقوله: عفت، أي: دَرَسَتْ. والمحَلُّ والمُقَامُ، قال شارح الديوان: هما مكان الحلول ومكان الإقامة.

من أقام يقيم؛ فمضموم، لأن الفعل إذا جاوز الثلاثة فالموضع مضموم الميم، لأنه مشبه ببنات الأربعة، نحو: دحرج وهذا مُدَحْرَجُنَا^(١). وقيل: المَقَام؛ بالفتح: المشهد والمجلس، وبالضم يمكن أن يراد به المكان، ويمكن أن يكون مصدراً ويقدر فيه المضاف، أي: في موضع إقامة^(٢).

﴿أَمِينٍ﴾: يُؤْمَنُ^(٣) فيه من الآفات ﴿فِي جَنَّتٍ وَعُيُونٍ﴾ بدل من «مَقَامٍ أَمِينٍ». ﴿يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَلِّبِينَ﴾ لا يرى بعضهم قفا بعض، متواجهين يدور بهم مجلسهم حيث داروا. والسُنْدُسُ: ما رَقَّ من الدَّبِياج. والإِسْتَبْرَقُ: ما غَلَطَّ منه. وقد مضى في «الكهف»^(٤).

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: الأمرُ كذلك الذي ذكرناه^(٥). فيوقف على «كَذَلِكَ». وقيل: أي: كما أدخلناهم الجنة وفعلنا بهم ما تقدّم ذكره، كذلك أكرمناهم بأن زوّجناهم حُوراً عِيناً. وقد مضى الكلام في العِين في «الصّافّات»^(٦). والحُورُ: البيض؛ في قول قتادة والعامّة، جمع حُوراء. والحُوراء: البيضاء التي يرى ساقها من وراء ثيابها، ويرى الناظر وجهه في كعبها، كالمِراة من رِقّة^(٧) الجلد وبضاضة البشرة وشفاء اللون. ودليلُ هذا التأويل أنها في حرف ابن مسعود: «بِعِيسِ عِين»^(٨). وذكر أبو بكر الأنباري: أخبرنا أحمد بن الحسين قال: حدّثنا حسين قال: حدّثنا عمار بن

(١) الصحاح (قوم).

(٢) ينظر مجمع البيان ١١٩/٢٥.

(٣) في (د) و(ظ): يا من.

(٤) ٢٦٦/١٣ - ٢٦٧.

(٥) إعراب القرآن للنحاس ١٣٧/٤، ومشكل إعراب القرآن ٦٥٨/٢.

(٦) ٣٤/١٨.

(٧) في (م): دقة.

(٨) القراءات الشاذة ص ١٣٧، والمحتسب ٢٦١/٢.

محمد قال: صَلَّيتْ خَلْفَ مَنْصُورِ بْنِ الْمَعْتَمِرِ، فَقَرَأَ فِي «حَمِّ الدُّخَانِ»: «بِعَيْسِ عَيْنٍ. لَا يَذُوقُونَ طَعْمَ الْمَوْتِ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى». وَالْعَيْسُ: الْبَيْضُ؛ وَمِنْهُ قِيلَ لِلْإِبِلِ الْبَيْضُ: عَيْسٌ، وَاحِدُهَا بَعِيرٌ أَعْيَسٌ، وَنَاقَةٌ عَيْسَاءٌ. قَالَ أَمْرُؤُ الْقَيْسِ:

يَرُغْنَ إِلَى صَوْتِي إِذَا مَا سَمِعْنَهُ كَمَا تَرَعَوِي عَيْطٌ إِلَى صَوْتِ أَعْيَسَا^(١)

فمعنى الحُور هنا: الحسان الثاقبات البياض بحسن.

وذكر ابن المبارك: أخبرنا معمر، عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون الأودي، عن ابن مسعود قال: إن المرأة من الحور العين ليرى مَخَّ ساقها من وراء اللحم والعظم، ومن تحت سبعين حُلَّةً، كما يرى الشراب الأحمر في الزجاجة البيضاء^(٢). وقال مجاهد: إنما سميت الحور حوراً لأنهنَّ يحارُّنَّ الطَّرْفَ في حسنهنَّ وبياضهنَّ وشفاء لونهنَّ^(٣).

وقيل: إنما قيل لهنَّ حُورٌ لِحُورِ أَعْيُنِهِنَّ. وَالْحَوْرُ: شِدَّةُ بَيَاضِ الْعَيْنِ فِي شِدَّةِ سَوَادِهَا. [يقال]: امرأة حوراء بينة الحور. [و] يقال: احورت عينه احوراراً، واحور الشيء: ابيض. قال الأصمعي: ما أدري ما الحور في العين؟ وقال أبو عمرو: الحور أن تسود العين كلها مثل أعين الظباء والبقر. قال: وليس في بني آدم حور، وإنما قيل للنساء: حور العين لأنهنَّ يشبهنَّ بالظباء والبقر. وقال العجاج:

بَأَعْيُنِ مُحَوَّرَاتٍ بِيضٍ^(٤)

يعني الأعين النقيات البياض، الشديديات سواد الحدق^(٥). والعين جمع عينا،

(١) ديوان امرئ القيس ص ١٠٦، والعيط: خيار الإبل وأفتاؤها. القاموس (عيط).

(٢) الزهد لابن المبارك (٢٦٠ - زوائد نعيم بن حماد)، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق (٢٠٨٦٧)، والطبراني في الكبير (٨٨٦٤).

(٣) أخرجه الطبري ٦٥/٢١ بنحوه.

(٤) ديوان العجاج ص ٢٢٨، وفيه: حور، بدل: بيض، وقبله: إذ ترتمي من خلل الخدور.

(٥) الصحاح (حور) وما بين حاصرتين منه، وفيه: حور، بدل: بيض.

وهي الواسعة العظيمة العينين^(١). وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مهور الحُور العين قبضاتُ التمر وفلقُ الخبز»^(٢). وعن أبي قُرَصفَةَ: سمعت النبي ﷺ يقول: «إخراج القمامة من المسجد مهوَرُ الحُور العين»^(٣). وعن أنس أن النبي ﷺ قال: «كنس المساجد مهوَرُ الحُور العين»^(٤) ذكره الثعلبي رحمه الله. وقد أفردنا لهذا المعنى باباً مفرداً في كتاب «التذكرة»^(٥) والحمد لله.

واختلف أيُّما أفضلُ في الجنة؛ نساءُ الآدميات أم الحور؟ فذكر ابن المبارك قال: وأخبرنا رِشدين، عن ابن أنعم، عن حَبَّان بن أبي جَبَلَةَ قال: إن نساء الآدميات من دخل منهنَّ الجنة، فُضِّلن على الحُور العين بما عملن في الدنيا^(٦). وروى مرفوعاً: «إن الآدميات أفضلُ من الحُور العين بسبعين ألفَ ضعف»^(٧). وقيل: إن الحُور العين

(١) الطبري ٦٦/٢١ ، والوسيط ٩٣/٥ ، وتفسير البغوي ١٥٥/٤ .

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل ١٦٨٤/٥ وفيه عمر بن صبح بن عمران التميمي، قال الذهبي في الميزان ٢٠٦/٣ - ٢٠٧ : ليس بثقة ولا مأمون . قال ابن حبان : كان يضع الحديث . وقال الدارقطني : متروك .

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٥٢١) مطولاً . قال الهيثمي في المجمع ٩/٢ : في إسناده مجاهيل . اهـ . وأبو قرصافة اسمه جندرة بن خيشنة ، له صحبة ، سكن فلسطين ، وقيل : كان يسكن أرض تهامة . الاستيعاب بهامش الإصابة ٩٣/١٢ - ٩٤ .

(٤) أخرجه ابن الجوزي في الموضوعات ٤٢٥/٢ وقال : هذا حديث لا يصح من جميع جهاته . وحديث أنس فيه مجاهيل ، وعبد الواحد ليس بثقة ، قاله يحيى . وقال البخاري والفلاس والنسائي . متروك الحديث . اهـ . وسلف ٢٨٥/١٥ بلفظ : ... وإن كنس غبار المسجد نقد الحور العين .

(٥) ص ٤٧٨ - ٤٨٠ .

(٦) الزهد (٢٥٥ - زوائد نعيم بن حماد) ، ورشدين ، وهو ابن سعد المَهْري المصري ، قال الذهبي في الميزان ٤٩/٢ : كان صالحاً عابداً سيئ الحفظ غير معتمد . وقال ابن معين : ليس بشيء . وقال أبو زرعة : ضعيف . وقال النسائي : متروك . اهـ وابن أنعم وهو عبد الرحمن بن زياد بن أنعم الإفريقي ضعيف ، الميزان ٥٦٢/٢ .

(٧) أورده المصنف في كتابه التذكرة ص ٤٧٧ ، ولم نقف عليه .

أفضل؛ لقوله عليه الصلاة والسلام في دعائه: «وأبدله زوجاً خيراً من زوجته»^(١). والله أعلم.

وقرأ عكرمة: «بِحُورِ عَيْنٍ» مضاف^(٢). والإضافة والتنوين في «بحور عين» سواء.

قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَلَاحَةٍ ءَامِنَةٍ ﴿٥٥﴾﴾

قال قتادة: «آمنين» من الموت والوصب والشيطان^(٣). وقيل: آمنين من انقطاع ما هم فيه من النعيم، أو من أن ينالهم من أكلها أذى أو مكروه^(٤).

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ وَوَقَّهَهُمْ عَذَابَ

الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضَلًّا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ أي: لا يذوقون فيها الموت البتة لأنهم خالدون فيها^(٥). ثم قال: ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ على الاستثناء المنقطع^(٦)، أي: لكن الموتة الأولى قد ذاقوها في الدنيا. وأنشد سيبويه:

مَنْ كَانَ أَسْرَعَ فِي تَفَرُّقِ فَالِحٍ قَلْبُونَهُ جَرِبَتْ مَعًا وَأَعْدَّتِ
ثم استثنى بما ليس من الأول فقال:

إِلَّا كِنَاشِرَةَ الَّذِي ضَيَّعْتُمْ كَالْغَصَنِ فِي غُلُوَاهِ الْمَتَنَّبِتِ^(٧)

(١) هو قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢٣٩٧٥)، ومسلم (٩٦٣) عن عوف بن مالك الأشجعي ؓ.

(٢) المحتسب ٢/٢٦١.

(٣) أخرجه الطبري ٢١/٦٧.

(٤) ينظر معاني القرآن للنحاس ٦/٤١٧.

(٥) المصدر السابق.

(٦) مشکل إعراب القرآن ٢/٦٥٨.

(٧) الكتاب لسيبويه ٢/٣٢٨ ونسبه لعنز بن دجاجة المازني، وكذا نسبه لعنز أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/٦١، والأعلم الشنتمري في تحصيل عين الذهب ص ٣٦٤. وسماه السيرافي في شرح أبيات سيبويه ٢/١٧١ - ١٧٢ عتر بن دجاجة؛ قال: ويروى لمعاوية بن كاسر، اهـ. ونسب البيت لغيره، ينظر الخزانة ٦/٣٦٢، والمقتضب ٤/٤١٦، وسر صناعة الإعراب ١/٣٠٢. قوله: أعْدَّتْ؛ أي: أصابتها الغدّة.

وقيل : إن «إلّا» بمعنى بعد، كقولك : ما كَلَّمْت رجلاً اليوم إلا رجلاً عندك، أي : بعد رجل عندك. وقيل : «إلّا» بمعنى سوى، أي : سوى الموتة التي ماتوها في الدنيا، كقوله تعالى : ﴿وَلَا نُنَكِّحُ مَا نَكَّحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾^(١) [النساء: ٢٢]. أي : سوى ما قد سلف^(٢). وهو كما تقول : ما ذقت اليوم طعاماً سوى ما أكلت أمس.

وقال القتبي : «إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى» معناه أن المؤمن إذا أشرف على الموت استقبلته ملائكة الرحمة ويلقى الرُّوحَ والرَّيحانَ، وكان موته في الجنة لا تصافه بأسبابها، فهو استثناء صحيح^(٣). والموتُ عَرَضٌ لا يذاق، ولكن جُعِلَ كالطعام الذي يُكره ذوقه، فاستُعير فيه لفظ الذوق.

﴿وَوَقَّهْمُ عَذَابَ الْجَحِيمِ . فَضْلاً مِّن رَّبِّكَ﴾ أي : فعل ذلك بهم تفضُّلاً منه عليهم.^(٤) ف «فَضْلاً» مصدر عمل فيه «يَدْعُونَ». وقيل : العامل فيه «وَوَقَّاهُمْ»^(٥). وقيل : فعل مضمر. وقيل : معنى الكلام الذي قبله، لأنه تفضُّلٌ منه عليهم، إذ وقَّههم في الدنيا إلى أعمال يدخلون بها الجنة .

﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي : السعادةُ والريح العظيم والنجاة العظيمة. وقيل : هو من قولك : فاز بكذا، أي : ناله وظفر به.

قوله تعالى : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾﴾

قوله تعالى : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ﴾ يعني القرآن، أي : سهَّلناه بلغتك عليك

(١) ذكر هذا القول الزجاج في معاني القرآن ٤/٤٢٨ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٧/٣٥١ - ٣٥٢ .

(٢) قوله : أي ما قد سلف ، من (ظ) و(ق) .

(٣) ينظر تأويل مشكل القرآن ص ٥٥ - ٥٦ .

(٤) تفسير البغوي ٤/١٥٦ .

(٥) مشكل إعراب القرآن ٢/٦٥٨ .

وعلى من يقرؤه ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون وينزجرون. ونظيره: ﴿وَلَقَدْ بَشَّرْنَا
الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٧]. فختم السورة بالحث على اتباع القرآن وإن لم
يكن مذكوراً، كما قال في مفتتح السورة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَرَّكَةٍ﴾، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ
فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] على ما تقدم.

﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ﴾ أي: انتظر ما وعدتك من النصر عليهم، إنهم منتظرون
لك الموت. حكاة النقاش^(١).

وقيل: انتظر الفتح من ربك، إنهم منتظرون بزعمهم قهرك^(٢).

وقيل: انتظر أن يحكم الله بينك وبينهم، فإنهم ينتظرون بك رب الحداث.
والمعنى متقارب.

وقيل ارتقب ما وعدتك من الثواب، فإنهم كالمنتظرين لما وعدتهم من العقاب.

وقيل: ارتقب يوم القيامة فإنه يوم الفصل، وإن لم يعتقدوا وقوع القيامة، جعلوا
كالمرتقبين لأن عاقبتهم ذلك. والله تعالى أعلم.

(١) النكت والعيون ٢٥٩/٥.

(٢) الوجيز بهامش مراح لبيد ٢٨٦/٢.